رسالة الفكر الحر

اسماعيل مظهر

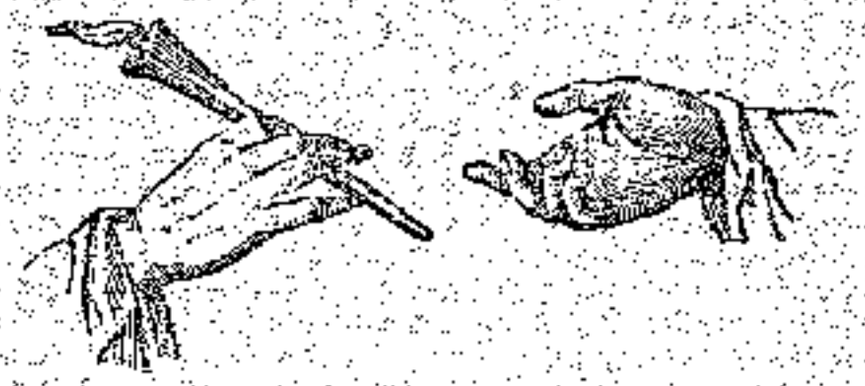

عصر الاستدلال

مطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٧

الرسالة الاولى

رسالة الفكر الحر

اسماعيل مظهر

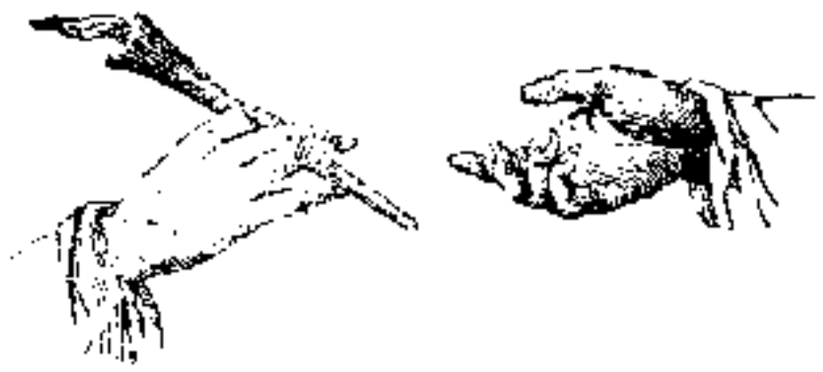

عصر الاشتراكية

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

مقدمة

يرجع عهد مصر بالمبادىء الشيوعية إلى الحرب العالمية الاولى . ففي سنة ١٩١٧ وقع الانقلاب البلشفي في روسيا ، وخرجت هذه البلاد من معمعة الحرب ، لتدخل في جحيم الثورة .

وقع لروسيا نفس ما وقع لفرنسا في أعقاب ثورتها العظمى . فقد خرجت فرنسا من ثورتها بحروب ألّبتها عليها أوربا . وكذلك روسيا ، فان الأمم الغربية ، وعلى رأسها بريطانيا ، لم تكد تلقي السلاح منتصرة على ألمانيا وأحلافها ، حتى وضعت السلاح في أيدي كارهين للفكرة الشيوعية ، ورحت تضرب بهم روسيا في عُقر دارها .

انتصرت فرنسا على المتألبين عليها من دول أوربا . وكذلك انتصرت روسيا على أولئك الذين أمدّتهم الديمقراطية البريطانية بعتاد الحرب ، ليضربوا الشيوعية في مهدها . وبهذا لم تمت مبادىء الثورة الفرنسية ، ولا انهارت الشيوعية .

وكانت مصر ، كما كان غيرها من الامم المستضعفة ، وبخاصة الشرقية منها ، قد خدعت خدعة كبرى بمبادىء ولسون ، ومضت تبني الآمال الضخام على مبدإ تقرير المصير .

إنهارت كل هذه الآمال ، عندما تبيّن لهذه الامم أن الدول الاربع الكبار ، وكنّ في ذلك الوقت انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا ، قد انقسمن قسمين : ثلاثة منهنّ في ناحية القضاء على مبادىء ولسون ، وواحدة برأسها الى جانب هذه المبادىء [1] .

---

(١) كانت خامستهن اليابان ، ولكن لم يكن لها من طامع كبير في سياسة أوربا نحو الشرق

انجلترا وفرنسا وايطاليا في ناحية ، والولايات المتحدة في ناحية وحدها . وقيل للمطامع الاشعبية ابلعي مبادىء ولسون ، ويا سماء الحرية أقلعي عن الايحاء لشعوب الارض بخيال ذلك الاوتوبي الجديد ، وقضي الامر ، واستوى على عصبة الامم ، وعلى أضحوكة الانتداب عن عصبة الامم ، واستعمار الذين استضعفوا في الارض .

كان كليمنصو يجلس في مؤتمر الصلح بفرساي وعن يمينه ولسون ، وعن يساره لويد جورج ، وزير بريطانيا الاول ، فقال قولته المعروفة « ما أشبهني بإنسان يجلس المسيح عن يمينه ، ويهوذا الاسخريوطي [1] عن شماله » . ولكن كليمنصو مال إلى ناحية يهوذا ، وخان المسيح ، فصلبت مبادئه وعلقت على صليب الاستعمار .

كان لهذه الحوادث تاريخ طال وامتدّ سنين ، ومضت أسلاك البرق تنقل إلى نواحي الدنيا ، ومنها شرقنا الادنى ، أنباء تلك الأحداث والثورات ، وأخبار الانقلاب الروسيّ ، وحروب روسيا مع المتألبين عليها ، فلقحت العقول بقليل من الحقائق ، غشت عليها كثير من الخيالات ، وراح أكثر الناس يعتقدون أن روسيا هي منقذة العالم من مطامع الاستعماريين ، ورافعة هذه الشعوب إلى الآدمية ، بعد أن ضغطها الاستعمار فأنزلها أسفل سافلين .

كنت في ذلك الوقت أحرّر جريدة « الأفكار » ، وكان يصدرها الحزب الوطني . وكانت أول صوت ارتفع بمقاطعة لجنة التحقيق التي أرسلتها بريطانيا إلى مصر للنظر في أسباب الثورة المصرية ، برياسة لورد ملنر . ورحنا جميعاً نضرب على نغمة حقوق الشعوب الصغيرة ، وتقرير المصير ، وموقف العمال ، والثورة

---

(١) الحواري الذي وشى بالمسيح

البلشفية . وكان لموزعي الجرائد في ذلك الزمن صوت مسموع عند محرريها ، فإذا تناقلت حركة البيع قليلاً ، دخل « عبد العظيم » ووقف أمام مكتبي بقامته المديدة ، وجسمه الضخم ، ونظر إليَّ مبتسماً ثم قال : (أكتب لنا كلمتين في البلشفيش) !

جماع هذه الظواهر كانت ارتكاسات لبست أثواباً مختلفة ، ولم يثبت منها شيء ، على ما أرى ، في عقلية الجيل الذي فرط ، اللهمَّ إلاَّ فكرة مبهمة غامضة ، محصلها أن العالم في طور انتقال ، وأن في جنبات هذه الدنيا صيحة جديدة .

ولكنَّ كلمة الطامعين في استعباد الشعوب ، كانت قد تمت على أن تمضي الحال على ما كانت عليه قبل تلك الحرب : شعوب كبرى منتصرة ، وأخرى صغيرة مغلوبة على أمرها ، وراحت الحوادث تترى آخذة بعضها برقاب بعض ، فتلَّت في الشرق عروش ، وخلقت عروش ، وانهارت دول ، وبنيت دول ، وهُدِرت حريات ، وأعيدت أخرى ، ولكن كل هذا لم يكن إلاَّ تأثيثاً جديداً لبيت قديم تداعت أركانه ، وارتجَّ منه الأساس . وعندي أن هذه الفترة كانت بدء انهيار النظام الاستعماري القديم . ولا شك في أنه نظام يحتاج الى سنين عديدة ، قبل أن تمَّحي آثاره كلها من عالم السياسة وعالم الاجتماع ، ونحن ولا شك نشعر الآن ، وبعد الحرب العالمية الثانية ، أن الفكرة في هذا الوجه المنهار من العلاقات الأممية ، قد مضى يَغُذُّ السير نحو الفساد التام ، بل نحو الدثور الكامل . فإن مبادىء ولسون لم تمت تماماً كما خُيِّل الى الكثيرين ولم تمح آثارها محواً كليًّا ، كما قال المتشائمون ، فتجددت في ميثاق الاطلنطي ومجلس الامن الدولي وهيئة الأمم المتحدة ، وراحت الدول الكبرى تعمل على تنظيم علاقاتها مع الدول الصغرى على قواعد جديدة . كل هذا من شأنه أن ينظم الفكرة في الحياة الدولية . وعندي أن ذلك التنظيم أمر اقتضاه تلك الفوضى الغامرة التي أحدثتها مطامع الدول الاستعمارية من ناحية ،

والثورات من ناحية أخرى ، في عقلية الجماعات .

كان من الضروري أن يترك هذا أثراً في تنظيم الفكرة الاجتماعية في الشرق كله ، ومصر خاصة ، فراح أهل الطبقة المتعلمة يدرسون الحركات الاجتماعية ، ومنها بالضرورة المذهب الشيوعي ، وما يمت إليه من المذاهب . ولكن درسهم هذا ظلّ مكبوتاً حسيراً ، بفعل السياسة التي اتبعتها بريطانيا إزاء روسيا ، وجارتها عليها مصر في خلال الأعوام التي انقضت منذ الحرب العالمية الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الثانية ، فتكونت نواة تفكر تفكيراً شيوعيًّا ، وتدعو الى الشيوعية . أما وجه الخطر في ذلك ، ففي أنّ هذا التفكير ظلّ مكبوتاً حبيساً ، ولو أنه أطلق من عقاله ، إذن لتكونت النواة التي تغالبه وتقاومه تكويناً طبيعيًّا ، ولكان في مستطاع الذين يؤلفون هذه النواة أن يثبتوا وبقوة ، أن أرض مصر لا تصلح فيها الشيوعية ، وأن أوضاعنا الاجتماعية ، أساساً وفروعاً ، هي من طبعها تقاوم ذلك التطرف الشيوعي . ولكن الحوادث جرت على غير ذلك ، حتى شعرت الحكومة يوماً ، شعوراً لا أعرف على التحقيق مداه ، بأنه من واجبها أن تقاوم هذا المذهب بتشريع ، فصبت ذلك التشريع في قالب فضفاض واسع ، يتناول الفكر كما يتناول العقل ، فكتبت الفصل الأول من هذا الكتاب ، وهو عبارة عن أربع مقالات نشرت بعنوان « حدِّدوا القيود وقيِّدوا الحدود » ، جائز أن يكون من أثرها أن رجعت الحكومة إلى تحديد تشريعها فقصرت سلطته على الفعل دون الفكر ، وحددت الفعل بأنه محاولة استعمال القوة في قلب النظام الاجتماعي أو الاستعانة بدولة أجنبية على ذلك . أما الفصل الثاني « نؤمن بالاشتراكية » فبحث تأملي تاريخي ، أعتقد أننا أحوج ما نكون إلى المضي فيه ، مسايرة لخطى العالم نحو التطور الاجتماعي الحديث .

الفصل الاول

بين الحدود والقيود

— ١ —

ما هي الشيوعية ؟

لسنا بلاشفة ، وانما نحن اشتراكيون نؤمن بالاعتدال ، ونؤمن بأن كل طفرة محال ، وأن كل تطور ممكن .

لسنا من دعاة الانقلاب ، ولا من غلاة الاصلاح . ولسنا من المؤمنين بأن حرب الطبقات سلاح توءمن نتائجه ، ولا أن تلك الحرب قد تخرج من الآثار الطيبة أكثر مما تخرج من الآثار الخبيثة ، إن كان هنالك حرب تدعى حرب طبقات على الاطلاق .

لسنا ممن يعتقدون أن النظريات تظل على جمالها عند التطبيق ، بل نوقن بأن ما لا يثبت على التطبيق لا يمكن أن يكون قائماً على نظرية صحيحة ، وأن التطبيق محك النظر ، فاذا انقاد وسلس ، كان برهاناً على أن النظرية التي طبقت صحيحة ، وإلاّ فهي فاسدة . ونعقب على هذا أن أكثر من تسعين في المئة من النظريات الاشتراكية ، قد أظهر التطبيق فسادها ، أو أن فساد التطبيق جعل العمل بها مستحيلاً .

ونحن فوق هذا كله من الديمقراطيين الذين يهمهم من شكل الحكم أن يكون

القانون مرعيًّا ، وأن يظل الشعب في حدود التزاماته القانونية ، وأن يتحقق لكل فرد من الأفراد حظه من حماية القانون ، وحظه من الحرية ، ما دام هو في حدود القانون ، وفي نطاق الحرية المكفولة بالدستور .

نقول هذا ونعلن أننا إنما ننادي به مخلصين ، وذمتنا من التدليس فيه براء . وإذا أعلنا ذلك فإنما نعلنه معتقدين أننا نعبر به عن رأي الأكثرية الغالبة من مفكري هذا الشعب . فلا يقوم في نفسنا أي حرج من إعلانه والمناداة به . ونعلم فوق ذلك أننا في ذلك لا نزال في دائرة المباح من القانون .

أما أن الاشتراكية هي العقيدة السائدة على الأغلب الكثير من أفراد هذه الأمة ، فذلك ما يدعونا ، بل يحفزنا إلى الكتابة في هذا الموضوع وإلى الإطناب فيه ، لعلنا بذلك نخدم الغرضين معاً ، غرض الاصلاح الاشتراكي ، وغرض المحافظة على النظام القائم وسلامة الدولة . ولا أظن مطلق الظن ، أن الغرضين يتنافران بصورة من الصور .

للحكومة أن تسن ما تشاء من القوانين ، ولها أن تتقدم بما تشاء من التشريعات لمجلس النواب الذي له الكلمة الأخيرة فيما تقدم له الحكومة من ذلك. ولكن الذي نطلبه وننصح به هو أن تُحَدَّد الأشياء التي تحاول الحكومة تقييدها بالقوانين . ولنضرب لذلك مثلاً بقانون مقاومة الشيوعية الذي وضعته الحكومة وتقدمت به إلى البرلمان . فان هذا القانون لم يُحدِّد ما يُعني بالشيوعية ، وإذا ظل الأمر كذلك ، وظل معنى الشيوعية غير محدد تحديداً دقيقاً في القانون ، زادت المرونة فيه، وكلما زادت المرونة في قانون انتهى به الحال إلى واحد من أمرين : فإما أن يفقد سلطانه وقوته لاستحالة تطبيقه ، وإما أن ينقلب أداة تستعمل في غير ما وضعت له، بأن يتعدى حدوده، فيصبح أشبه بسلطة مطلقة واسعة ، تتسع دائرتها

شيئاً بعد شيء ، حتى يشمل حدوداً لم تقم أبداً في رأس الشارع الذي وضعه .

هناك اشتراكية معتدلة واشتراكية متطرفة ، وثالثة بين بين ، وهـذه جميعاً يشملها قانون مقاومة الشيوعية ، إذا توسعنا في تفسيره بعض الشيء . وهناك الشيوعية بمعناها الأوسع وهناك الشيوعية المحدودة بجعل بعض المرافق الدولة والأملاك ملكاً للامة ، فأيهما يعني قانون مقاومة الشيوعية ؟

لنضرب لذلك مثلاً حديث رئيس الوزراء [1] مع جريدة أسبوعية إذ قال دولته ما نصه : « إن حكومتي اشتراكية ، إذا كانت الإشتراكية هي محاربة الفقر والمرض والجهل ، ورفع مستوى المعيشة ، ومنح كل إنسان حقه في الحياة والتقدم »

هذا الكلام ظاهره أن رئيس الوزارة اشتراكي . ولكن الحقيقة أن فيه غموضاً قد يخفى على الكثيرين . فإن محاربة الفقر والمرض والجهل ، ليست من الاشتراكية في شيء ، بل هي من عمل كل الحكومات على اختلاف صورها . هي من عمل حكومة للمحافظين في انجلترا ، كما هي من عمل حكومة عمال اشتراكية ، وهي من عمل دكتاتورية هتلرية أو موسولينية ، كما هي من عمل فرد مستبد عادل . هي من عمل كل حكومة مهما كان لونها ، أو على الأقل هي ما يفرض أن يكون عمل حكومة . فإذا صارَحَنَا رئيس الوزراء بأن وزارته أو حكومته اشتراكية ، لأنه يفهم من الاشتراكية محاربة الفقر والمرض والجهل ، خشينا أن يكون ذلك افهم عينه هو الذي أوحى بقانون مقاومة الشيوعية . على أننا لا ندافع بذلك عن الشيوعية ، وإنما غرضنا أن نجلو ذلك القانون في ثوب محكم على قدر الغرض منه ، فلا يصاب بالمرونة التي تفسد القوانين .

وكذلك قول دولته إنه يفهم من الاشتراكية رفع مستوى المعيشة ، ومنح كل

---

(١) اسماعيل صدقي

انسان حقه في الحياة والتقدم . هذه الكلمات على نبلها وسموّها ، قد تفسر بأنها إشتراكية متطرفة بينها وبين الشيوعية فوت ذراع ، إذا ساءت النية أو تحكمت الأهواء .

الدليل على هذا أنّ الإشتراكية ولا الشيوعية غرض في ذاتهما ، وإنما هما وسيلتان من وسائل العمل ، فمحاربة الفقر والمرض والجهل غاية ، وسيلة الوصول إلى القضاء عليها ، هي التي تنعت بأنها اشتراكية أو شيوعية أو غير ذلك . وتصوير هذه الوسيلة تصويراً صحيحاً في قانون يقاومها من أحوج الحاجات ، وإلاّ لبس هذا القانون ثوباً فضفاضاً ، قد تجد فيه أية حكومة أخرى غير الحكومة التي وضعته بمقتضى تصور خاص قام عندها ، سلاحاً تعتدي به على الحريات التي يحميها قانون البلاد الأساسي بالفعل . قد يُتَوَسَّع في تفسير القانون فيحاسب على الرأي ، كما يحاسب على الوسيلة .

والمثل على ذلك قائم . فإذا قام كاتب مصري خاضع لقانون محاربة الشيوعية ، وكتب يدعو إلى شيوعية النساء مثلاً ، وأيد هذا الرأي بالكلام من غير أن ينتحي وسيلة إلى تنفيذه وفرضه على الجمعية عنوةً ، ومن غير أن يعمد الى عنف أو اتخاذ خطوات تعرض سلامة الجمعية لخطر الانقلاب الثوري ، أيكون خاضعاً لهذا القانون ؟ هل يتناوله قانون مقاومة الشيوعية ؟ وإذا قال آخر بأن من الوسائل المؤدية إلى محاربة الفقر والمرض والجهل ، تحديد الملكية الزراعية أو فرض ضرائب تصاعدية كبيرة ، أو انتقد قانوناً مثل قانون الضرائب التصاعدية ، وقال إنه لا يفي بالغرض ، هل يتناوله قانون مكافحة الشيوعية ، أم يتفاداه ؟ الحق أننا لا ندري .

من غير أن نحدّد الشيوعية في مذكرة تفسيرية شاملة ، وتعرف تعريفاً كاملاً وثيقاً ، فإن القانون المشروع لمقاومتها قد يصبح أداة : إما معطلة : وإما فاسدة .

هنالك أنواع من القتل . القتل العَمْدُ، والقتل مع سبق الإصرار والترصد، والقتل الخطأ . هذه معانٍ محددة في الأذهان وفي القوانين ، ولها تعاريفها المتفق عليها ، ولها المواد التي تجزي عليها . ولكن ما هي الشيوعية ؟ ما هو التعريف الجامع المانع الذي وضع لهذه الكلمة الغامضة، التي لم يستطيع أن يعرفها تعريفاً متفقاً عليه ، واحدٌ من الشيوعيين أنفسهم ؟

نقصد بهذا كله أن يصبح القانون المشروع لمقاومة الشيوعية قانوناً يلابس حالة معينة ، لا قانوناً فضفاضاً واسع الجنبات مطاطاً ، قد يُتَّخَذُ في يد من يريد أن يصرفه عن غرضه الأصلي ، سلاحاً يقف أمام الفكر ، وأمام الاصلاح الحقيقي وأمام الاتجاهات الاجتماعية الكريمة .

بالاضافة إلى ما تقدم نقول إن الاشتراكية ليست مجرد وسيلة ، كالمدية إذ هي وسيلة الجرح أو القتل ، بل هي نزعة اجتماعية تغلغلت في نفسية الأمم وظهرت آثارها واضحة في انجلترا عقيب الانتخابات الأخيرة . فعلينا أن ندرس هذه الظاهرة عندنا درساً دقيقاً ليتضح لنا السبيل إلى مقاومتها بالإصلاح وبالقانون معاً ، وأن نجعل وسيلتنا إلى مقاومتها الإصلاح قبل القانون .

حرب الطبقات : ما هي ؟

لعلنا لا نكون بعيدين عن الحقيقة شيئاً ، إذا قلنا أننا كثيراً ما نتكلم من غير أن نفكر، وأننا لا نفكر إلاَّ بعد فوات الوقت . من الأدلة على ذلك أننا قد نستمسك بصنف من الكلام له رنين خاص في آذاننا ، وجَرْسٌ خاص في نفوسنا ،

ونمضي نلوك تلك الكلمات ثم نلوكها، من غير أن نحكم فيها الفكر لحظة واحدة، ومن غير أن نخضعها لقياس المنطق طرفة عين . من ذلك أن وزارة الزراعة ظلت سنين عديدة تخرج علينا كل يوم تقريباً بعنوان تنشره في الجرائد هو « حماية السكلاريدي [1] » وتحت هذا العنوان ما شئت من بحوث الخبراء والاخصائيين ، فلم يُحْمَ السكلاريدي بل مات ، والبقاء لوزارة الزراعة . ومن ذلك في السياسة قولنا : « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » فلم نستقل ولم نَمُت ، والدور الآن على « حرب الطبقات » . مع أنه منذ فجر التاريخ وما قبل التاريخ ، لم تقم حرب تدْعى « حرب الطبقات » ولكنه رنين الكلمات ، وخداع العناوين ، قاتلهما الله .

التاريخ القديم بريء من حرب الطبقات ، وكذلك تاريخ العصور المظلمة والقرون الوسطى ، ومنذ أن بدأ نظام القطائع في الانهيار في العصور الحديثة ، أخذت الطبقة الثالثة يشتد ساعدها ويظهر أثرها في الوجود . فان ذلك النظام قام على طبقتين : النبلاء ورجال الدين . أما طبقة الشعب ، أي الطبقة الثالثة ، فلم يتحقق لها وجود سياسي صحيح ، إلاَّ في أثناء الثورة الفرنسية ، عند ما تألف مجلس الطبقات : The States General

وبنجاح الثورة الفرنسية ، وسيادة الطبقة الثالثة ، وبالحري سيادة المبادىء التي اعتنقتها، قُضِي على شيء يقال له طبقات في نظام الاجتماع . على أنه حتى حين تسودت الطبقة الثالثة في الثورة الفرنسية ، لم تقم حالة يمكن أن تدعى حرب طبقات كالتي نتخيلها . كل ما في الأمر ، أن متجهاً اجتماعيًّا استقوى على متجه آخر . وبالضرورة يقتضي الاتجاه أن يكون له موجِّهون ، وأن يكون له أنصار ، شأن كل شيء في عالم الفكر ، وعالم التطور الاجتماعي .

---

(١) ضرب من القطن زرع في مصر

هل لنا أن نقول إن الخلاف بين الواقعية والخيالية في الفلسفة ، هو حرب طبقات ؟ هل لنا أن نقول إن النزاع بين المتطوِّرين والطَّفريِّين في الإصلاح الاجتماعي ، حرب طبقات ؟ كلاَّ . إنما يكون القول بذلك إسراف وحمق وبعدٌ عن تقدير الواقع التقدير الصحيح . وما هذه غير اتجاهات ، لكل منها مؤيدين ومنابذين ، والحكم الأخير فيها جميعاً لعلام الغيوب . فان العلم لم يستطع حتى اليوم ، أن يتكهن عن اتجاهات الجماعات كيف تنقلب ، والأفراد كيف يصبحون .

* * *

الحروب التي قامت في أوربا وسميت خطأً «الحروب الدينية» ، أكانت حروب طبقات ، أم حروباً سياسية قامت باسم الدين ؟ كانت في الواقع حروباً سياسية اتُّخِذ الدين إليها سبيلاً ، ولكنها لم تكن حرب طبقات قطعاً . أخص ذلك حروب لوثر في حركة الاصلاح الديني ، فإنها كانت حروباً انتهز فرصتها بعض الأمراء الألمانيين ، ولم تكن حرب طبقة دينية تلقاء طبقة أخرى . وإذن فليس في ذلك من حرب الطبقات ، كما تتخيلها خطأً ، شيء مَّا . وكذلك سقوط الملكية في فرنسا ، فإنه أمر جاء بالواسطة لا بالقصد . فإن الثورة في فرنسا لم تتجه نحو الملكية ولا نحو النظام الملكي أول الأمر . ولكنها اكتسحت الملكية بحكم اكتساح الطبقة الثالثة للطبقتين الأخريين . على أن رفع بعض الضرائب كضريبة الحبوب وضريبة الملح ، كان يكفي في معتقدي إلى تأجيل مَلَكية لويس السادس عشر بضع سنين ، وقليلاً من الإصلاح بإقرار بعض مبادىء الثورة ، كان يكفي لانقاذها إلى النهاية . ومع هذا فقد كانت الملكية الفرنسية هي حامية الطبقتين المُلْوِيَّتين : النبلاء ورجال الدين . ودليلنا الحي على ذلك أن فرنسا أسلمت زمامها إلى نابليون في أعقاب ثورتها ، وخضعت له خضوعاً أعمى ، فساقها إلى الموت والفقر

والفساد ، ولم ينبس فرنسي واحد ببِنْت شفةٍ . فأين هي إذن تلك الحرب التي يسمونها إسرافاً حرب الطبقات ؟

هنالك متجه اجتماعي جديد ولا شك ، هو الذي أوحى إلى البعض بتلك العبارة الدَّنِسَة، عبارة حرب الطبقات . عبارة خيالية ، أعتقد أن كثرة ترديدها سوف ينشّىء حالة هي أشبه بحرب حقيقية بين الطبقات ، لأن إغراء التكرار له أثره النفسي في الفرد، وفي الجماعة . فإذا مضينا نكرر هذه العبارة المَرَّة تلو المرة ، أوْحَيْنا بمعناها للناس ، فيتجهون اتجاهاً خطأً قد يفضي الى كارثة ، سببها عبارة وهمية لا حقيقة لها البتة .

المتجه الاجتماعي الجديد الذي أشرنا إليه ، هو ذلك المتجه الذي سارت فيه خطى الجماعات الأوربية بعد أن أدركها الانقلاب الصناعي الحديث ، فحلّ المعمل محل البيت، وحلت الآلة محل اليد، وحلّ الانتاج الجَمّاعيّ محل الانتاج الفردي. قامت بذلك حالة اقتصادية جديدة ، هي التي تدعى الرأسمالية الحديثة ، ومؤداها تكديس المال وقوة المال، في أيد تستغل المال وتستغل العامل، بدون أن يكون لها هي صنع في الإنتاج ، اللهمَّ إلاَّ قوة المال . وكان لهذا الاتجاه أثره المباشر . فإن تنوير الأذهان بالقراءة والكتابة والنشر ، وزيادة المعلومات العامة ، قد أوجد بيئة خاصة فرَّختْ فيها البزرة الأولى لطلب الاصلاح ، إصلاح حالة العامل والمزارع وكل الفئات العاملة بجهد يديها وعضلاتها ، ومن ثَمَّتَ تباينت الوسائل، فمن قائلين بالاصلاح عن طريق التشريع ، ومن قائلين بالاصلاح عن طريق الاشتراكية ، وما الى ذلك ، حتى قامت الشيوعية الروسية .

فهل في ذلك شيء من حرب الطبقات ؟ كلاَّ . فإني أعتقد أن القول بأن في ذلك شيئاً يقال له حرب طبقات ، سفه ليس وراءه سفه . ولكن الذي أسلمُّ به ،

أن هنالك دعوات وجهت إلى بعض فئات من الجمعية ، لتقاوم بوسائل قد تكون غير مشروعة ، فئات أخرى . ولـكن هل نجحت هـذه الدعوات فأثارت حرباً يقال لها حرب الطبقات ؟ لم يحدث ذلك مرة واحدة في تاريخ الدنيا .

قد يعتبر البعض أن الإضراب ، أو الدعـوة إلى الإضراب ، هو حرب الطبقات . أما أن هذه حرب بمعنى الحرب ، فذلك ما لا نسلم به . أما أنه دليل على روح الاحتجـاج ابتغاء دفع مظالم معينة ، فذلك ما أسلم بوجوده ، لا في طبقة العمال أو الفلاحين أو غيرهم ، بل في نظام الأسرة الواحـدة . فقد يُـضْـرِب بعض أفراد الأسرة عن التعاون مع بقيتها احتجاجاً على حالة قائمـة ، وقد تنحل الأسرة بسبب ذلك ، فينصرف كل فريق منها في سبيل . ولـكن هذه ليست حرباً ، بل هي أقرب ما تكون الى النزول على حكم التطور الاجتماعي ، الذي لا بدَّ له من أن يقع ، إذا اختمرت أسبابه .

الشيوعية الروسـية هي أبلغ انقلاب اجتماعي حـدث إلى الآن في القرن العشرين . فهل هي نتيجة لحرب الطبقات ؟ كلاَّ وألف مرة كلاَّ . هي نتيجة المظالم القيصرية ، وفساد الحـكم القيصري ، قبل أن تكون نتيجة دعوة لحرب موهومة سميت حرب الطبقات . هي نتيجة الاسـتعباد والنفي والقتل والحـكم بلا قانون ولا دستور ولا شريعة ، إلاَّ شريعة النبل الموروث والاستبداد الذي استغلَّـته يد القيصر وحِـفْـنَـة خلفه من المحظوظين . فلما قامت الثورة عقيب الانهزام الروسي في الحرب العالمية الأولى ، انتهز فرصتها أقلية من غلاة الاشتراكيين وقلبوها شيوعية لا تزال نظاماً غريباً على الغالبية العظمى من الروسيين أنفسهم .

قد يسألنا أحدهم فيقول كيف إذن ثبت ذلك النظام في روسـيا على تجارب ثلاثين سنة ؟ وليس الجواب بعيداً . فالنظام الروسي قائم على دكتاتورية من أشد

وأفظع الدكتاتوريات التي شهدها نظام الحكم في الأرض . فالروح في روسيا سجين في أقفاص ذلك الحكم ، ولا نعرف له حقيقة إلاَّ إذا انطلق وحلق بجناحيه في سماء الحرية ؟ هذا أول شيء . والثاني أن الروسيين بعد الذي بَلَوْه من نظام الحكم القيصري ، قد تحول استعدادهم إلى قبول أي نظام من أنظمة الحكم ، باعتبار أن أيًّا منها ، مهما ساءت أحواله ، أصلح من حكم القيصر وأنصاره . على أن قليلاً من الحرية وقليلاً من الإصلاح ، كانا يكفيان لدفع هذا النظام عن روسيا . وفي اعتقادي أن الشيوعية الروسية انتكاس لن يدوم على حاله ، وكذلك لن يعود عهد القيصر . أما الذي سيكون ، فأمرٌ يبعد أن يتكهن به انسان . ولكنه على أية حال سيكون ربحًا للإنسانية ، تنتصر فيه حرية الفكر وحرية الضمير ، وحرية التشريع ، وهي أسمى ما يتطلع إليه الإنسان باعتباره بشراً ، وباعتباره سيد المخلوقات ، وباعتبار أن إهدار الحرية ، إهدار للآدمية .

الحرية التي سادت بريطانيا قرونًا ، والدفاع الذي دافعه عن هذه الحريات أبطال من أبنائها ، هو الذي ركَّز الحرية البريطانية هذا التركيز القوي المتين . لذلك نرى أن هذه الجزر السعيدة أقل بقاع الأرض تعرضاً للثورات والانقلابات ، والحزب الشيوعي فيها من الضعف بحيث لا يعد إلى جانب حزب العمال الاشتراكي أو حزب المحافظين ، أكثر من دُمْية يلهو بها هؤلاء . وكذلك كان شأن الفاشيَّة البريطانية ، فإنها كانت مهزلة الفاشيَّات جميعاً .

إن الحرية هي التي سيجت النظام الديمقراطي البريطاني بذلك السياج الثابت ، هي التي تحميه من أعاصير الثورات ، ولو أن الشعب الانجليزي يرغم على حكم أشبه بالحكم القيصري ثلاثة عقود من الزمان ، إذن لانقلب أشد شيوعية من الروسيين ، أو أشد فاشيَّة من إخواننا أهل إيطاليا . ولكن كيف بهذا ، والحرية

هنـاك تبيح القول بكل رأي ، والترويج له في حدود القوانين ، فلا ينتبهون من بحث كل مشكلة ، إلاّ بأصلح الآراء ؟

الحرية مِلاَك الرأي . والآراء في الرءوس ، كأفراد الأحياء في الطبيـعة ، يقوم بينهـا تناحر على البقاء ، ولـكن لا يصح منهـا غير الصحيح ولا يبقى إلاّ الأصلح . أما الـكبت والاسـتبداد والحمق ، فلاكها الثورات والفورات والجهل والحماقة ، والانسياق وراء أول ناعق ، طالح غالباً ، وصالح نادراً .

روسيا في طرف الشيوعية ، وبريطانيا في طرف الإشتراكية الديمقراطيـة الصحيحة ، أين في قيـام نظاميهما الموضع الذي احتلته تلك الحرب الموهومة التي يسمونها بَيْنَنا حرب الطبقات ؟ لا أثر لذلك الخيال أبداً في طرفي هذين النقيضين. وإذن فأين يكون ؟ هو في الواقع قائم في وَهْمِ بعض السياسيين الذين لا يعرفون من تاريخ الاجتماع شيئا ، ويعجبهم في الأكثر رنين الـكلمات .

وبعد كل هذا ، فقد اعترفنا بأن في أنحاء هـذه البلاد جهلاً وفقراً ومرضاً ، وبالاضافة اعترفنا أن هنالك جهلاء وفقراء ومرضى ، وأن في أنحاء هـذه المملكة جوعاً وعُرْيًا وحَفَـاءً ، وأن في أصقاعها المترامية أجساماً لاتسترها غير أسمال ، وبطوناً لا يملؤها غير خبز الذرة والملح ، ورءوساً لا يسكنها غير الخرافات ، وقلوباً لا تنطوي على غير الجبن ، وعيوناً لا ترى نور الشمس ، فبربك إذا انفطرت القلوب على هؤلاء حسرة ، وارتجفت النفوس هولاً ورهبة ، واهتزت الأرواح خشية من هول ذلك ، وقمنا نطالب لهذه الأجساد العارية بأثواب ، ولهذه البطون الخاوية بأقوات ، ولهذه الرءوس الفارغة بغذاء من العلم ، ولهذه القلوب الراجفة بقوت من الفضـيلة والدين ، طالبنا ونحن نؤخر رِجلاً ونقدم أخرى ، حتى لايدركنا وهم الطبقات وحرب الطبقات ؟ . غفرانك اللهمَّ ، إنك أحكم الحاكمين .

— ٣ —

شيوعية وديمقراطية : ثم ماذا ؟

كتب أستاذ نابه[1] بحثاً في الشيوعية والديمقراطية ، نظر فيه من ناحية بعينها في الفرق بين المذهبين، وقصر نظره في الأكثر على الناحية القانونية التي هي مجال بحثه ، ولم ينظر في الأمر نظر الناقد الاجتماعي أو المصلح السياسي ، فجاء بحثه مبتوراً ، كالهرم الناقص ، له القاعدة ، وتنقصه القمة

قال إن الشيوعية هي الجناح الأيسر من الاشتراكية . وفي ذلك كثير من التجوز والبعد عن التدقيق في تعريف هذه المعاني . نعم إن في الشيوعية بعض معاني الاشتراكية ، ولكن الشيوعية مع ذلك ، مذهب أو متجه اجتماعي ليس فيه من الاشتراكية إلاَّ ناحية منظمة للحياة الاقتصادية ، ولكن الشيوعية ، فوق ذلك ، نظام حكم ودولة دكتاتورية ، وليس في الاشتراكية شيء من ذلك أصلاً . فقد يكون النظام الاقتصادي اشتراكيًّا ، وتكون الدولة ديمقراطية مقيدة بأنها ملكية أو جمهورية ، مِلاكها دستور حر تحترم فيه الحريات ، وتنمو فيه الكفايات بحسب ما تقتضي تلك الحرية . وليس في ذلك كله شيء من الشيوعية.

إن النظام الشيوعي نظام هرمي تطابقي ، تعلو فيه طبقة على طبقة ، وتتدرَّج الطبقات ، فإذا كمل الهرم تربع من فوقه مجلس أعلى ، ومن فوق هذا المجلس تربع شخص واحد ، هو ستالين في روسيا .

---

(١) الاستاذ السيد صبري بكلية الحقوق

فأين إذن الشيوعية من الاشتراكية ؟ ليقال إن الأولى جناح أيسر للثانية ؟ أما بمقتضى ما ذكرنا ، فالفارق عظيم ، بحيث لا يمكن أن يقال إن الشيوعية جناح الاشتراكية الأيسر ، إلاّ بكثير من التجوز الذي هو أقرب الى الشذوذ ، منه إلى الحالات السويّة القائمة في مجتمعات هذا العصر .

إذا كانت الشيوعية هى الجناح الأيسر للاشتراكية ، إذن جاز لنا أن نقول إن شيوعية روسيا السوفيتية ، هى الجناح الأيسر للاشتراكية البريطانية ، ممثلة في حكم حزب العمال الإنجليزي !!! فهل علمت بشذوذ أعظم من هذا الشذوذ .

الشيوعية نظام اقتصادي ودولة ؟ أما الاشتراكية فنظام اقتصادي في دولة ، وهذا الفارق وحده كفيل بأن يظهر لنا بوضوح أن الشيوعية شيء ، والاشتراكية شيء آخر ، والصدع بينهما بعيد هائل .

لكي نظهر ذلك نعود إلى المقارنة بين شيوعية روسيا وديمقراطية بريطانيا الاشتراكية . فروسيا اليوم دولة قائمة على دكتاتورية يمثلها ستالين ، ويمثل ستالين المجلس السوفيتي الأعلى ، فإذا مثل ستالين روسيا ، فإنما هو يمثل ذلك المجلس ، وإذا مثل المجلس ستالين فإنما يمثله للمجالس التالية له ، وهكذا يمثل كل مجلس رأس الدولة لما هو دونه حتى يتم بناء الهرم ، فيكون في قاعدته طبقة دنيا تحمل كل ذلك الضغط الهائل الذي يتراكب من فوقها ، وعلى القمة العليا شخص دكتاتوري السلطة ، هو في روسيا ستالين . أما بريطانيا فدولة نظام الحكم فيها دستوري ملكي مقيد ، كنظام الحكم في مصر تماماً . نظام يقدس الحريات بأنواعها ويصون الملكية وحقوقها ، ويقدس العرش الذي هو رمز البلاد ، فلا يتعرض لمذهب أو رأي أو عقيدة ، إلاّ بمقدار ما تتطلب قوانين البلاد وشرائعها .

إذن فالقول بأن الشيوعية جهة يسارية للاشتراكية ، غير صحيح قطعاً ، بل

هو شذوذ ، وجمع بين ما لا يجتمع من الأضداد . أما إذا كان في الشيوعية بعض النظم الاقتصادية المقول بها في الإشتراكية ، فان ذلك لا يبرر أن نذهب هذا المذهب ، وسببه في الحقيقة أن الإشتراكية تعمل في أول ما تعمل له على تضييق دائرة الفروق وتوسيع دائرة المشابهات بين أفراد الأمة الواحدة ، والشيوعية تعمل فيما تعمل لمثل ذلك . فإذا كان في الشيوعية وجه من الشبه بالإشتراكية، فذلك هو ، أما فيما عدا ذلك ، وبخاصة في احترام الحريات على القاعدة الديمقراطية ، وفي نظام الدولة والحكم، فالشيوعية في وادٍ ، والاشتراكية في وادٍ غيره.

* * *

قال الأستاذ الفاضل :

« هذه المذاهب ترمي إلى القضاء على الرأسمالية بصفة عامة ، على اعتبار أنها أساس المحن والخروب . غير أن أصحابها لم يجمعوا على رأي واحد ، بل انقسموا شيعاً وأحزاباً ، ولعلّ أهم هذه المذاهب مذهبان : الجَمَاعيّة[1] — Collectivism

---

(١) لاشك أن الجماعية Totalitarianism هي غير الضمامية : Collectivism : وقد أخطأ الاستاذ صبري إذ وضع اصطلاح الجماعية محل الضمامية . لان الاولى هي النظام والمبادىء التي قامت عليها الفاشية والنازية ، وعلى هذا المعنى سقنا الكلام في بحثنا هذا . أما الضمامية Collectivism فشيء يختلف تمام الاختلاف عن الجماعية والاشتراكية اختلافاً تاماً . وأرى أن أقوم ترجمة لاصطلاح Totalitarianism هي التعبئية، لان مرماها هو تعبئة جميع قوى الجمعية للسيادة والتسلط من ناحية العقل ، وقيام نظام اشتراكي بصورة ما من ناحية الاقتصاد .

Socialism	الاشتراكية
Socialist - s	الاشتراكي — الاشتراكيون
Totalitarianism	التعبئية — أو الجماعية
Totalitarian - s	التعبئي أو الجماعي — التعبئيون أو الجماعيون
Collectivism	الضمامية
Collectivist - s	الضمامي — الضماميون
Communism	الشيوعية
Communist - s	الشيوعي — الشيوعيون

والشيوعية — Communism ؟ وكلا المذهبين يرى أن تقوم الحكومة على الانتاج والتوزيع . غير أن الجماعيين يرون أن يكون التوزيع على أساس مقدرة كل شخص على العمل ، بينما يذهب الشيوعيون إلى أن يكون التوزيع على أساس حاجة كل فرد ، لأن اختلاف القدرة من عمل الطبيعة ، ولا دخل للفرد فيه » الخ .

وقول حضرته « هذه المذاهب » يدخل الاشتراكية في عداد المذاهب التي ترمي الى القضاء على الرأسمالية . وهذا خطأ محض . ولاشك في أن الشيوعية عند أول تطبيقها في روسيا ، قد عملت على القضاء على الرأسمالية بكل صورها واحتمالاتها. غير أنها عادت فنظمت الرأسمالية تنظيماً يطابق أهدافها ، لأن القضاء على الرأسمالية قضاءً صرفاً ، قد شلّ حركة المجتمع شللاً تامًّا ، وكاد يقضي على كل همة فردية . ففي روسيا الآن نظام رأسمالي بصورة ما ، وإذن فالقول بأن هذه الأنظمة ترمي إلى القضاء على الرأسمالية ، إسراف لا ينطبق على الواقع .

لقد قامت ثلاث حكومات جَماعية في أوربا ، النازية في ألمانيا ، والفاشية في إيطاليا ، وحكم فرانكو في إسبانيا . هذه الحكومات قامت على الجَماعِيَّة التي يقول الأستاذ إنها من المذاهب التي تعمل على القضاء على الرأسمالية . فهل قضت على الرأسمالية في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا ؟ كلاَّ . وإذن فمن أين جاء الأستاذ بهذا الكلام .

لقد استعانت ألمانيا برؤوس الأموال الفردية والصناعية والتجارية على تكوين آلة الحرب الألمانية الهائلة . وكذلك فعلت إيطاليا . فهل كانت الجماعية فيهما سبباً في تغذية الرأسمالية ، أم في القضاء عليها ؟ لقد سمعنا عن الثروات التي جمعها دكتور جوبلز والمارشال جورنج وغيرهما ، وقرأنا عن ذلك ما يشبه قصص ألف ليلة ، فهل كانت الجماعية في ألمانيا قد قضت على الرأسمالية ؟ وإذا لم تقض الجماعية على

الرأسمالية وهي في أوج سلطتها في ألمانيا وإيطاليا ، فتى سوف تقضي إذن ؟ إنما القول بأن الجماعية نظام يحاول القضاء على الرأسمالية ، قول بعيد عن الواقع بحسب ما يبدو لنا ، وفهم الجَمَاعِيَّة على هذه الصورة ، فهم خاطىء ولا شبهة.

والذي أفهمه من الجماعية أنها اشتراكية وطنية تعمل على توسيع دائرة المشابهات وتضييق دائرة الفروق بين طوائف الأمة ، زائداً إلى ذلك نزعة إلى التسلط الكامل على الأمم الأخرى تأثراً بوهم تسود السلالات . ألم نسمع كثيراً في خلال تسود النازية والفاشية عن تفوق السلالة التيوتونية والسلالة اللاتينية ؟ . وإني لعلى يقين من أنه لو فرض وانتصرت ألمانيا وإيطاليا في هذه الحرب ، لقام بينهما نزاع على السيادة العنصرية قضى على إحديهما . وهذا ما لا ينازعنا فيه منازع. وعلى هذا تكون الجماعية نظام رأسمالي من أشد النظامات الرأسمالية استبداداً ، لأنه يرمي إلى استعباد شعوب برمتها استعباداً اقتصادياً ، فيجمع في يديه كل الخيرات ويوزع منها ما يشاء بحسب ما يشاء . فهل هذا نظام يعمل على القضاء على الرأسمالية ؟ .

إن آية الجماعية الحقيقية هي القضاء على ثروة جميع الشعوب وحريات جميع الشعوب إلاَّ شعباً واحداً ، هو الشعب صاحب السلالة الأصيلة . فبدلاً من أن يقوم بين أفراد الجماعة طبقة قليلة محظوظة ، تستعبد جميع الصعاليك ، تقوم أمة نقية السلالة هي أحق الأمم بحكم العالم ، فتكون في مجموع الأمم نظير الطبقة المحظوظة في الجماعة ، وبقية الأمم هي صعاليكها .

* * *

إذا كان الفرق بين النظام الشيوعي القائم في روسيا ، وبين النظام الجَمَاعِيّ الذي كان في ألمانيا وإيطاليا ، هو مجرد أن الشيوعيين يقولون بأن التوزيع يكون على

أساس حاجة كل فرد ، وأن الجماهير يقولون بأن التوزيع يكون على أساس مقدرة كل فرد على العمل ، فهل هذا الفارق البسيط الذي لا يكاد يفرّق بين المذهبين قيد شعرة ، هو السبب في ميثاق مناهضة الشيوعية ، يعقده الجماعيون جميعاً ليقاوموا به الشيوعيين جميعاً ، وهل هو سبب كاف لأن تعلن ألمانيا الحرب على روسيا ، تلك الحرب التي قضت عليها ، وذهب ضحيتها الملايين من شباب الأمتين ؟ إن هذا لبعيداً عن العقل ، بل بعيداً عن المنطق ، حتى منطق البسطاء .

إن الأسباب التي حملت الجماعيين على تنظيم ميثاق مناهضة الشيوعية لأسباباً أعمق من ذلك كثيراً ، فالشيوعية كما قلنا نظام اقتصادي ودولة، ترمي إلى دَولِيَّة عامة . والجماعية اشتراكية وطنية ترمي إلى تسلطيّة دولية تكون لسلالة بعينها .

وإذن فلا الشيوعية نظام يقضي على رأس المال قضاءً كليًّا، ولا الجماعية فيها شيء من الشيوعية بالمعنى الذي فصله الأستاذ الفاضل .

* * *

نمضي من ثمت إلى الكلام في الشيوعية والديمقراطية ، لنظهر الفارق بينهما ، لا من حيث تفاصيل الحكم والدولة ، ولكن من حيث الآثار المترتبة على الأخذ بهما في نظام المجتمع .

إن الفارق الأساسي بين الشيوعية والديمقراطية ، أن الشيوعية نظام جمودي ، والديمقراطية نظام تطوّري. وكذلك أعتقد أن الجماعية ، من حيث أنها استبدادية، تدخل في جمود الشيوعية . وإني أكاد لا أستريب في هذا .

الشيوعية ملاكها حكم استبدادي دكتاتوري هرمي البناء تطابق النظام ، وهي بمقتضى تحكّم مجلس السوفيات ، كما هو حاصل في روسيا ، تقل فيها فرص التطور ، حتى تكاد تكون لا شيء ، أما الديمقراطية فملاكها حكم نيابي حر على

رأسه ملك مقيد أو رئيس جمهورية ، وكلاهما يخضع للقانون الأساسي للبلاد ، فيلزم رُخَصه القانونية ، ويتفادى خرق الدستور . وفيما عدا ذلك ، فالحرية هي أساس الحياة : الاجتماعية والفردية .

الشيوعية ببنائها الذي بيّنا ، من خلائقها أن تكبح الفكر وتكبت حرية التفكير . وأظن أن لها بعض الحق في ذلك ، إذا راعينا نظامها الهرمي التطابقي . فان الفكر إذا افتلع لَبِنَة بعد أخرى من قاعدة ذلك الهرم أو من أحد جوانبه ، تأثر بذلك بقية البناء . فاذا انتزعت اللبنات الواحدة بعد الأخرى ، انهار ذلك النظام برمته في النهاية . وإذن فالاستبدادية الدكتاتورية في نظام شيوعي أمرٌ يقتضيه كيان النظام ذاته . ومن هنا يصاب كل نظام شيوعي بالجمود ، إذ هو مجبر على أن يظل على ذلك الشكل الهرمي ، وإلاّ انهار وفسد . أضف إلى ذلك أنك إذا انتزعت لبنة من بناء ذلك الهرم ، فانك لا تستطيع أن تضع مكانها لبنة تخالف طبيعتُها طبيعةَ اللَّبِنات الشيوعية الأخرى التي تؤلف الهرم . ذلك بأنها تصبح بمثابة الشيء الغريب في جسم لا يألفه . فاما أن تنزع لبنة شيوعية لتضع أخرى من نوعها ، وإلاّ فلا تنزع إلاّ لتهدم . وذلك ما لا تقره قمة الهرم ، وهي الدكتاتورية الفردية .

والنظام الديمقراطي على نقيض ذلك تماما ، إذ هو بما يحمي من حرية الفكر ، وبما يقوم عليه من نظامات وسلطات ، إن انفصلت فهي متعاونة ، إنما يتجدد ويتطور بإضافة لبنات جديدة في صميم بنائه ، يستبدل بها لَبِنات أخرى يكون الزمن قد أظهر عدم صلاحيتها ، فتستبدل بأصلح منها . فهو بذلك خاضع لقانون بقاء الأصلح ، واطّراح الأطلح .

ليس للَّبِنات التي يتألف منها نظام ديمقراطي صفة الخلود والبقاء . فهي

تبقى ما دامت صالحة في إقامة البناء . فإذا استطاع الفكر أن يجد لبنةً أخرى أصلح منها وأقوم ، وأدخَلَ في باب الصلاحية للفرد وللمجموع ، نزعت الفاسدة وحلت محلها الصالحة . ومن هنا تسير الديمقراطيات متطورة وتظل الشيوعيات جامدة ، وقد يأتي يوم تبذّ فيه الديمقراطيات كل شيوعية مهما صلحت من حيث النظام والقوة ، بمقتضى سيرها التطوري ، فتصبح أعلى في خير الجماعات كعباً وأمعن أثراً .

* * *

بقيت لنا بعد ذلك كلمة فيما استطرد فيه الأستاذ السيد صبري من الكلام عن سلامة الدولة . وهذه العبارة أيضاً ينبغي أن تحدد تحديداً تامّاً ، وإلاّ اتسعت دائرتها ، وقد تتسع ثم تتسع ، حتى إذا ما جَلاَ الانجليز عن البلاد ، وجلس مصري مع بريطاني في مقهى يلعبان النرد ، فُسِّر ذلك بأنه عمل من شأنه أن يعرض سلامة الدولة للخطر .

على قدر علمي ، أعتقد أن تعريض سلامة الدولة للخطر معناه الفعلي التآمر على إحداث شيء من شأنه أن يعرض استقلال البلاد للضياع . ومن ثمت تضيع الدولة . أما أن يحمي القانون الدولة من حرية الفكر ، حتى إذا كانت هذه الحرية في نطاق القانون العام وفي حماية الدستور ، ولاسيما إذا رمى الفكر إلى الاصلاح عن طريق أغلبية برلمانية ، فذلك أمرٌ ينبغي أن لا يذكر إلى جانبه شيء من سلامة الدولة . وإني لأعتقد أن الحرية التي ترمي إلى الاصلاح عن طريق الأغلبيات البرلمانية ، هو عمل في صميم المحافظة على سلامة الدولة . والواقع أن هذا ما رمى إليه الشارع عند ما ذكر سلامة الدولة في الدستور .

لا تكبتوا الفكر ولا تقمعوا الحرية . فالفكر والحرية كضوء الشمس أو

شعلة الراديوم ، يستحيل أن تحبس أو تكبت أو تقمع عن السير في طريقها المحتوم - وإلاَّ فعلى الذين يحاولون اليوم أن يكبتوا الفكر أو يقمعوا حريته ، أن يتحملوا مسئولية مايصنعون بأيديهم . فان لكبت الفكر وقمع الحرية استحالات ندعو الله ضارعين ، أن يجنبنا ويلاتها .

* * *

— ٤ —

أوهام الحقيقة : كيف نراها ؟

ظهر في تاريخ هذه الدنيا ديانات عظام ، منها الباقي ومنها البالي . الباقي ديانة كونفوشيوس والبرهمية والبوذية والموسوية والنصرانية والاسلام ، والبالي الزرادشتية والمصرية للقديمة وآلهة إغريقية وآلهة الرومان والديانة التيوتونية الاسكندينافية في شمال أوربا . من هذه الديانات ما كان فيه صفة الدعوة العامة ، أي صفة الكنلكة والشعوبية ، ومنها ما كان فيه صفة الخصوصية والقصور على أمة ولحقب .

رسمت هذه الديانات على رقعة الأرض خريطة جغرافية ، لا يعترف بها الجغرافيون بالطبع ، ولكن يعترفه بها الاجْياليُّون [1] من العلماء ، والباحثون في طبائع الشعوب وحالاتها الاجتماعية .

إن القول بان هذه للديانات قد رسمت هذه الخريطة صحيح ، ولكن من بعض الوجوه دون كل الوجوه . أما الحق فان طبيعة الناس واستعداداتهم وميولهم الفكرية والنفسية ، هي التي خططت تخوم هذه الخريطة . فاذا نظرت في رقعة العالم كما هو اليوم ، رأيت أن كرة الأرض قد خططت بحيث ترى تخوم انتشار

---

(١) Ethnologists

كل دين منها جلية واضحة المعالم ، وأن الجذب والدفع بين الديانات البشرية منها ، إنما هو حاصل في أطراف هذه التخوم ، فكرةٌ هنا وفكرةٌ هناك ، ودفعٌ هنا وجذبٌ هنالك ، ولكن بصورة موضعية وتحت تأثير حالات قد ندرك بعضها وقد يغيب عنا أكثرها ، لغموضها واندفاعها في أعمق التصورات الانسانية .

إذا تأملنا من هذه الخريطة بعين الخيال ، بان لنا واضحاً أن لكل دين من هذه الديانات حدوداً جغرافية انتهى عندها انتشاره في الوقت الحاضر على الأقل . فاذا عدّلت في المستقبل لم يخرج الباعث الى تعديلها عن أمرين : إما تطور في التصور الانساني ، وإما تطور في روح الدين نفسه ؛ وبغير ذلك ستظل هذه التخوم مرسومة على صفحة الارض ، وأنها على ما فيها من الخطوط المنحنية والمستقيمة ، وعلى ما فيها من الالتواء والتموّج ، أثبت من الحدود السياسية التي يخطها السياسيون على الورق ، ثم تقضي عليها الاحداث .

إذا كان هذا شأن الاديان ، وهي أشياء إنسانية تقوم على تسليم وإيمان ، أعميين على قول البعض ، ومبصرين على قول الآخرين ، فأولى بهذه الحقيقة أن تكون أكثر انطباقاً على المذاهب الاجتماعية التي تقوم على فكرات اقتصادية أو مثالية أو أخلاقية ، وهي مذاهب لا تصدر عن إيمان أو عن تسليم ، بل تصدر عن الفكر ، ويحتاج الاقتناع بصلاحيتها إلى نجاح عند التطبيق ، وإلى أمثلة مادية ملموسة ظاهرة المعالم بينة القسمات . ذلك بأن الفكر الانساني قد جرّع من أشياء الإيمان جرعات سدت حاجته في هذا العصر ، وستسد حاجته لأبعد العصور ، بحيث لم يبق في نواحيه من مكان لدعوة تقوم على الإيمان المجرد عن تفاعيل الشك ، بل إن الشك أصبح الآن طابع الفكر ، بعد أن غمره الإيمان وملأ منه فراغاً لا محلّ فيه لمزيد منه .

الحروب الصليبية في القرون الوسطى دليل قائم على صحة هذا المذهب. وعندي أن هذه الحروب في جوهرها ، ليست غير مدّ ديني تجاوز حدوده الجغرافية . ولأنه تجاوز حدوده الجغرافية ارتدّ ثانية إلى حيث تريد الطبيعة أن يقف . وكذلك استعمار العرب لاسبانيا وغزوهم فرنسا وجنوبي أوربا . هو مدّ استعماري ديني ارتد بعد الاندفاع إلى تخومه الجغرافية . وامتداد الامبراطورية التركية في البلقان وحدود النمسا ، أمرٌ لا يخرج عما بيّنّا .

في ضوء هذه الحقائق الثابتة ، ينبغي أن ننظر في المذاهب الاقتصادية التي تلبس روح دعوة ، يرى الكثيرون خطأً أنها قد تصبح عالمية . كانت النازية إحدى هذه الدعوات ، وكذلك الفاشية في إيطاليا . دعوتان ماتتا في حدودهما الجغرافية، لأنّ الضمير الإنساني رفضهما . أما فاشية إسبانيا فهي في النزع الأخير ، ولم يبق في العالم من دعوة تلابسها روح فيها شيء من الشمولية ، إلاّ شيوعية روسيا السوفيتية . وليس عندي من شك أن لهذه الدعوة تُخُوماً جغرافية ستقف عندها ، إن صحّ مع الزمن أنها سوف تكسب صفة البقاء . أما أنها سوف تتجاوز حدود روسيا إلى أجزاء أخر من رقعة الأرض ، فذلك ما لا قدرة لنا على تعيين حقيقته . فان التجربة ما تزال عند الامتحان ، والدكتاتورية الروسية سدٌّ منيع يحول دون تحقيق هذه التجربة : أهيَ إلى الثبات أم إلى الزوال . ذلك بأن الحرية هي البَوْتَقَة التي ينبغي أن تجري فيها تجارب المجتمع . فإنه من المستحيل أصلاً أن تتبين صفة الاتجاه الاجتماعي في جمعية مكبوتة الميول ، مقموعة الخطرات ، مصدودة عن التنفس ، حتى عن مشاعرها البُدَائيّة .

فعلى الذين يتصورون اليوم أن هذه الدعوة الشيوعية خطر على الشرق ، وعلى الشرق العربي خاصة ، أن يثبتوا أن هذه الدعوة ليس لها تخوم جغرافية ،

وأن يقيموا الدليل على أن الشرق سوف تضمه هذه التخوم، إذا قدر لهذا المذهب أن يذيع وراء حدود روسيا . وإلاّ فلا أقل من أن يصمتوا عن الكلام في « خطر الشيوعية » إذ أنهم يوحون للناس عن طريق هذا الكلام، بأشياء قد تصبح من الثبات في الوهم بحيث تحتل مكان الحقائق الواقعة . بهذا قد تتوارى الحقائق، وتذيع الأوهام ، وبذلك يكونون قد مَهَّدُوا بأيديهم سبيل الذيوع لما يريدون الحيلولة دونه ، وهم والناس من ورائهم مضللون ، تتقاذفهم الأوهام .

* * *

إذا كانت الحقيقة علاج الوهم ، وجب علينا أن ننشر الحقائق لتقضي على الأوهام . وجب علينا أن ننشر الحقائق مؤيدة ببراهين من المنطق أو بأمثلة من الواقع ، وأن ننشرها سافرة بلا خوف ولا وجل ، لنكون عند ما توجبه علينا رسالة الإرشاد . وجب أن ننشر الحقائق بوجوه ما لها وما عليها ، لنؤدي رسالة الحرية الفكرية للناس كاملة بقدر المستطاع ، وحرية الفكر ولا ريبة سِنَادة المجتمع ودعامته ، والمُهَيِّىء الأول لتوازن الخطى نحو الإرتقاء الحقيق .

في جرائدنا وفي كُتُبنا ، نذيع عن روسيا أوهاماً ، قد تتكيف في منطق البسطاء فتصبح كأنها حقائق . والجماهير من الكائنات البسيطة المنطق ، وهي تَنْفِر من المنطق المُرَكَّب ، إذا تركت لها حرية الجري وراء المنطق البسيط .

اللوم في ذلك علينا . فان القادرين على أن يرشدوا الجماهير بالمنطق المُرَكَّب المساير لمقتضى العقل ، يرتكبون أفحش الخطأ ، بل إنهم يُجْرِمون في حق الأمة، إذا تركوا الجماهير تسير بمقتضى منطقها البسيط ، منطق الأوليات ، منطق أولئك الذين يقولون مثلاً — « إذا لم تكن الشيوعية حقًّا ، لما انتصرت روسيا في الحرب الأخيرة » !! منطق بسيط ، ولكنه خطأ .

واللوم كل اللوم من ناحية أخرى على صحفنا ومجلاتنا ، ففي خلال تلك الأنباء الخارجية التي تحتل المكان الأول من صحفنا ، وأقول صحفنا جميعها بغير استثناء ، تتسلل دعوة إثر دعوة ، وينتشر وهم وراء وهم ، ونحن جميعاً في غفلة عما يلقح به الفكر عندنا من أثر هذه الدَّعْوات والأوهام ، وقد نشعر برجّات تختلف عنفاً ولِيناً ، ولا ندرك لها سبباً . وسببها في الواقع ما نصنع بأيدينا .

لا أريد بهذا أن أدعو إلى القطيعة بيننا وبين أنباء العالم . ولكن أريد إلى جانب هذا أن تفرد من صفحات جرائدنا ومجلاتنا مكاناً لنشر الحقائق السافرة ، والاتّصال بالرأي العام عن طريق هذه الحقائق ، وتفنيد هذه الدعوات الأوربية التي اتخذت من الشرق مجالاً تمْرع فيه ، من غير أن يحاول أحدنا أن يقول على قدر علمه ، هذا حق ، وذلك باطل . فكل الأنباء التي ننقلها عن الخارج سموم مختلفة الطعوم يجرعها الرأي العام . فليكن ذلك كيفما يكون . ولكن واجب المرشدين أن يسارعوا أيضاً إلى علاج هذه السموم ليخرجوها من تصور الناس . وما علاجها إلاّ نشر الحقائق السافرة ، مهما كانت مُرّة . ولقد ننظر فنرى في مجموعنا كثيراً من المرشدين . ولكن انتهوتهم الأهواء ، فإذا بهم جامدون سامدون ، كأنّ على رؤوسهم الطير ، إذا تكاموا كلمة الحق ، أو قالوا يوماً : هذا حق ، وذلك باطل .

* * *

وهنم من أوهام المنطق البسيط الذي تركن إليه الجماهير نعالجه هنا ، لنُظْهر كيف ينبغي أن تعالج أوهام الناس بالحقائق السافرة . ذلك وهم الذين يقولون : « إذا لم تكن الشيوعية حق ، لما انتصرت روسيا في الحرب الأخيرة » . ومما هو باعث على أشد الأسف أن هذا اللون من المنطق يؤمن به عدد كبير ، منهم متعلمون ، ولكنهم لا يفكرون .

بالرغم من أن هذا الوهم قائم على منطق بسيط ، فإن ما يَبْعَثُ في نفوس الجماهير من الإهمال له أثره البالغ وقوته القاهرة . وليس أدل من هذا على أن انتصار الجيش الأحمر قد غمر أوربا ، وغمر الشرق في أثرها ، بموجة من الإعجاب والتأثر ، تعدت مجرد أنه انتصار حربي ، إلى الظن بأن هذا الانتصار أثر من آثار المذهب الشيوعي . أخطاء فوق أخطاء .

على أننا إلى جانب هذا نخطىء أيضاً ، إذا نحن انتقصنا كفاية الجيش الأحمر أو أنزلنا من قيمة آلة الحرب الروسية . وكذلك نخطىء إذا لم نقل بأن هزيمة الجيش الألماني في روسيا كانت عملاً من الأعمال الباهرة ، ونخطىء أيضاً إذا اعتقدنا أن هذه الهزيمة كانت معجزة ، ويتضاعف خطؤنا إذا اعتقدنا أنها معجزة شيوعية .

الحقيقة أن عدد الناس في روسيا يتجاوز ضعفي عددهم في ألمانيا ، وقدرة الصناعة العاملة في روسيا سنة ١٩٣٩ ، اعتماداً على الإحصاءات السوفيتية نفسها ، كانت مساوية لقدرة الصناعة الألمانية . أضف إلى ذلك أنحاء روسيا المترامية ، وفجاجها الواسعة وإقليمها العنيد ، ثم أضف إلى ذلك إنجلترا وأمريكا ومَدَدِهما . كل هذه الأشياء تجعل غزوها عسيراً جداً ، إن لم يكن مستحيلاً . وإذن فلم يكن هنالك من الاعتبارات الانسانية ، اعتبار واحد يقيم في نفوس الناس إعتقاداً أولياً في استحالة انتصار روسيا على ألمانيا ، أو انتصار ألمانيا على روسيا : اللهم إلاَّ وهْمين: وهْمُ أن ألمانيا لا تقهر عند الذين تعلقوا بذيل الألمان ، ووهم أن الشيوعية دين لا يقهر أيضاً عند الذين تعلقوا بذيل روسيا ، وكان كل من الفريقين على خطأ ، ولا يزال كثير منه شائعاً بين الناس

أضف الى ذلك أن احتمال الجندي الروسي واعتقاده في القَدَر ، أمران جرياً

مجرى الأمثال . وفي حرب سنة ١٩١٤ كانت قدرة روسيا الصناعية خُمس قدرة ألمانيا ، ومع هذا رأينا الروس في ظل القيصر المقوت المستبد ، قد ثبتوا في هجوم « بروسيلوف » المشهور ، فتقدَّم الصف الأول منهم وبأيديهم بنادق وفي أقدامهم أحذية ، وتقدَّم الصف الثاني بأحذية ولكن بدون بنادق ، وتقدَّم الصف الثالث وبأيديهم بنادق ولكن بلا أحذية . ومع ذلك حاربوا أربع سنوات ، جزء منها في سبيل القيصر ، وجزء في سبيل كرنسكي ، والجزء الأخير في سبيل البلاشفة . على أن الثورة الروسية لم تقم هنالك إلاَّ بعد أن عجزت القوة العسكرية ووقف دولاب الإنتاج الحربي . فهل كان في ذلك الوقت قوة شيوعية تدفع الروس إلى حرب الفناء هذه ؟ . ولكن الدعاية الشيوعية الآن تستغل الانتصار الحديث لمصلحتها ، وتقول إن الشيوعية سرُّه وسببه . دعاية وهميَّة ، قد تفضي إلى تحقيق أغراض بعينها ، إذا لم يقف الناس على حقيقتها .

* * *

في ظل القيصرية ، وكانت في أوج استبدادها وفي قمة سيطرتها ، حيث كان الروس عبيداً ، والطبقة المحظوظة أمراء ، هزمت روسيا نابليون سنة ١٨١٥ هزيمة منكرة ، وردَّته على أعقابه والى حيث كان ينتظره النَّفي والهوان . فهل كان في تلك القيصرية المقوتة في ذلك العصر سر أشبه بسر الشيوعية ، دفع الروس إلى حرق موسكو وإلى التلبُّث بالجيش الفرنسي يعنون فيه قتلاً وتشريداً ، دفاعاً عن وطنهم ؟

سبب من الأسباب التي لا ينبغي أن يهمل ذكرها ، هو تلك الصفة الرسيسة في الروس ، صفة كراهيتهم للأجانب ، سواء أكانوا في نظام قيصري أم نظام

شيوعي . هم يكرهون أن تطأ قدم أجنبي أرضهم . على ذلك خلقوا . وليس في ذلك من أثر يحدثه نظام قيصري أو نظام شيوعي .

على أننا لا ننسى أيضاً أن الناس كثيراً ما حاربوا دفاعاً عن نظامات سلبت حريتهم واستبدت بهم وأنزلت بهم الفقر والجوع والخوف . لا نعلم لماذا ؟ أكانوا أيضاً مدفوعين بعامل الشيوعية ؟

* * *

ينبغي لنا أن نحارب الأوهام ، وأن نحاربها بالسلاح الذي يقضي عليها ، سلاح الحق والحقيقة . ينبغي لنا أن نعمد للحقائق وأن نعترف بها وأن ننشرها في الناس ففي ذلك الخير كل الخير ، وفي تركنا الأوهام حائمة في الأفكار الخطر كل الخطر .

يجب أن نعترف إلى جانب هذا أن في جوّنا أسباباً وحالات من شأنها أن تجمع العواصف والأعاصير ، ولكن علينا أن نعترف أيضاً أنها ليست من الأسباب التي تبعث في نفوسنا الجزع والفزع ، وأن ترسل بنا مع الأوهام تتطوّح في حمأتها . هي أسباب من صنع يدنا ، وبيدنا لا بغيرها نستطيع القضاء عليها . قد يتضخم الوهم في نفوسنا فيخيَّل إلينا أننا مقدمون على انقلاب أشبه بالثورة الفرنسية أو الانقلاب الشيوعي في روسيا . انهما انقلابان تجمعت أسبابهما في أكثر من قرن ونصف تقريباً من عمر الانسان ، وتهيَّأ لهما من الظروف ما نعلم وما لا نعلم . فهل في بلادنا أو في الشرق الأدنى كله شبه بما كان واقعاً في فرنسا أو روسيا القيصرية ، قبل قيام الثورة الأولى ، والانقلاب في الثانية ؟

ألا بعد ما يتوهَّمون .

— • —

الفصل الثاني

نؤمن بالاشتراكية

— ١ —

إذا قلنا أننا نؤمن بالاشتراكية فليس ذلك راجع إلى تقليد ، ولا هو عائد إلى حب تغيير الأوضاع الاجتماعية حبًّا في التغيير نفسه ، ولا كراهية في النظم الاقتصادية أو السياسية القائمة ، ولكن اقتناعاً بأن طوراً من أطوار الاجتماع قد آن اختتامه ، وأن الجماعات تستقبل عهداً جديداً ، شأن كل شيء من أشياء الحياة. فإن تاريخ الحياة هو في الواقع تاريخ التدرج من حال إلى حال ، ومن مرتبة إلى مرتبة ، تساوقاً على مدى الأجيال .

ولئن قلنا اليوم إننا نؤمن بالاشتراكية ، فليس ذلك بجديد ، وإنما آمن بها من قبل ملايين من المفكرين ، سيقوا إلى هذا الإيمان بمقتضى انقلابات ثابتة تناولت المجتمع والأخلاق والنظامات السياسية ، بل تناولت النفوس والاتجاهات والنزعات الفردية ذاتها .

ومن أجل أن نجعل لكلامنا وزناً أدخلُ في باب البيان ، نأتي على عبارات فاه بها ثقاتٌ من أهل النظر في الاجتماع ، تأييداً لقولنا أن الإيمان بالاشتراكية لا يدخل في باب التقليد ، وإنما يدخل في باب الأحكام المحتومة لفعل التطور العقلي والنفسي في الجماعات .

يقول الاستاذ « مكنزي » : إن تطور الفكرة الاشتراكية من أخص ظواهر العصر الحاضر . ويقول الاستاذ « شادول » إن الاشتراكية أعضل مشكلات هذا الزمن . أما العلامة « مَيْنزِس » الألماني ، وهو من أعلام الباحثين في طبيعة الاجتماع فيقول : إن الاشتراكية هي « كلمة السر » في عهدنا الحاضر . والفكرة الاشتراكية تسيطر سيطرة تامة على عقول الناس . فالجماهير يتعلقون بها ، كما أنها قد تتضخم بها الأفكار ، وتَرْبُل بها المشاعر . وإنها لتَطْبع العصر بطابَعِها الخاص ، حتى أن التاريخ سوف يدمغ العصر الذي نعيش فيه ، بأنه « عصر الاشتراكية » .

ويقول الكاتب الانجليزي « هندرسون » وهو أحد الثقات : ما من فرد من مجموع أمة نابهة يكون في مقدوره أن ينتفع بحقه في الرهوبة بِهَرَاهَةٍ وحِذْق ، من غير أن يفهم حق الفهم قضية الاشتراكية . ففي مدى جيل واحد من عمرنا اجتذبت الاشتراكية إلى ناحيتها ملايين من ثقات المفكرين رجالاً ونساءً . ولقد عرضت الاشتراكية قضيتها بصورة هي من الإقناع والبيان بحيث أصبح الاتجاه في كل أمة من الأمم المتمدينة نازعاً إلى العمل على تفوق الاشتراكية في الصراع السياسي . إنها لتنتقل في مراحل تُسْلِم بها من مدرج إلى مدرج من القوة ، متحدية النظم العتيقة بجرأة تؤيدها الثقة والإيمان .

ومن قبل أن يكتب العلاَّمة « هندرسون » كتابه « قضية الاشتراكية » الذي نقلنا عنه هذه العبارات ، صرَّح كاتب أمريكي هو مستر « أورث » في كتاب له عنوانه « الاشتراكية والديمقراطية في أوربا » ، بأن الاشتراكية انتظمت أكبر مجموعة من الخلائق عرفها تاريخ البشرية ، وأن مُنَظَّماتها الدولية لا يناظرها من شيء ، تنسيقاً وحماسة ، غير شيء واحد ، هو الكنيسة . ومستر

„ أورث „ ممن توفروا على درس الحركات الاجتماعية في الغرب .

ليست هذه الأقوال غير طرف يسير مما فاه به ثقات وأعلام من أهل النظر ، وهي تظهرنا جليًّا على ما للاشتراكية من قيمة في الطور الاجتماعي الذي نجتازه ، إلى جانب أنها تلفتنا بما فيها من اللمحات . إلى التساؤل : ما الذي يجعل للإشتراكية هذا الوزن الكبير في رأي هؤلاء الأعلام ؟

* * *

قبل أن نحاول الإجابة على هذا السؤال ينبغي لنا أن نستطرد قليلاً في بيان ما يجب على الحكومات والجمعيات والأفراد إزاء هذه الظاهرة . فإن أيّة حكومة تنظر إلى هذه الظاهرة الاجتماعية نظرة سطحية ، أو تقابلها بهزّة كتف أو غمزة عين ، لحكومة : إما جاهلة بحقيقة الحياة الاجتماعية الحاضرة ، وإما مقصرة في أداء واجبها نحو الأمة التي ألقت إليها مقاليد شئونها العليا .

إذا نظرنا في جنبات الدنيا الأربعة ، ورأينا ذلك الإجماع الكامل الذي يشمل جميع الذين يفكرون في مستقبل الأمم ، ويتخذون من المذاهب الاشتراكية موضعاً لتفكيرهم وعميقَ تأملهم ، أدركنا طرفاً من التأثير الشامل الذي خلّفه ذيوع تلك المذاهب ، وضربها في أصول النظامات القائمة ضرب عملاق قويّ الأصلاب ، واستطعنا أن نستشف على وجهٍ من الدقة ، بالغ أثرها وشمول فعلها الثابت في السياسات العالمية القائمة من حولنا ، وبه تتجاوب أنحاء كرة الأرض .

لهذا نعتقد أن عناية القادرين على بحث هذه الظاهرة الاجتماعية الجُلَّى من جميع وجوهها التحليلية والانتقادية ، لا يصبح فرض كفاية يستوي فيه وجوب الفعل أو تركه ، وإنما هو فرض عين على كل منهم . لأن الأمم الشرقية انْبَرَت لها رياح شديدة عاتية أخذت تكتسح خيالاتها القديمة ، وتعمل في أصول

تقاليدها التي درجت عليها الآلاف من السنين ، فهي في طور انتقال ، اتصف بكل ما تتصف به أطوار الانتقال من محاسن ، كما أن فيه كل ما اعتور تلك الأطوار من النقائص والخلقات .

* * *

اختلفت نظرات الكتّاب والعلماء والمفكرين في تقييم الاشتراكية ووزنها بمقتضى الأثر الذي خلفته في مجتمعات العالم . ولقد تراوحت القيم التي أدركها كل منهم بين القول بأنها انقلاب طبيعي اقتضاه تطور طويل بطيء ، إلى القول بأنها دين .

يعزو الأستاذ « ميزس » الألماني قدرة الاشتراكية في القبض على زمام الرأي العام العالمي ، إلى الآمال التي تبعثها في نفوس الدهماويين (البروليتاريا) والحمية التي توقدها في قلوب مؤيديها . أما « هندرسون » فيذكر في خلال ما كتب أشياء صوّر بها سرعة انتشارها وذيوع مبادئها ، وما خلفت في الناس من بالغ الأثر واقترابها من القبض على زمام السلطان السياسي . ويشير دكتور « أورث » إلى ما في المنظّمات الاشتراكية الدولية من القدرة والقهر ، إلى جانب ما تبثّ في الآخذين بها من حمية هي أشبه شيء بحمية المتدينين .

هنالك فئة أخرى من الكتّاب بهرتهم قوة الإيحاء التي تنطوي عليها الدعوة الاشتراكية ، تلك القوة المستمدة من المنافع التي تبشر بها جموع البائسين والتعساء ، والذين أصابهم نكد الطالع وحطّ بهم سوء الحظ . وغير أولاء وهؤلاء ، فئة تعزو ما للإشتراكية من قيمة وقدرة إلى ما في برامجها ومطلوباتها الإصلاحية من طبيعة الانقلاب والثورة . ذلك بأنها على ما يقولون لا ترمي إلى إصلاح النظامات الاجتماعية القائمة فحسب ، بل هي قد ترمي إلى محوها وإحلال نظام

جديدة تقوم مقامها . وهنالك فئة من المفكرين يقولون إن المهارة التي استطاعت بها الاشتراكية أن تقبض على زمام أحزاب العمال ، مكّنتها من التحكم في النقابات والقضاء فيها بما تشاء ، كما أنها سيطرت على الكنائس ، ووجهت السياسات ، وأصبح لها الكلمة في الإدارة ، وأمكنها أن تتربع في كراسي الحكم ، تغتصبها اغتصاباً وتنتزعها انتزاعاً ، فكان ذلك أجلى وأروع مظاهرها .

على أنه كثيراً ما يقع الباحث في خلال ما يقرأ من تمجيد محبذيها ، وتسفيه منابذيها ، على أنها كثيراً ما شبّهت بالدّين ، وحمية مؤيديها بحمية الحواريين والمريدين . قال الأستاذ « إيلي » : لقد أصبحت الاشتراكية بمثابة دين عند الكثيرين . وإنّ ما تبعث في معتنقيها من الحماس والحمية ، لأشبه شيء بما يبعث الدين في النفوس .

أما العلامة « جوستاف لوبون » في كتابه « سيكولوجية الاشتراكية » ، فقد نظر في الاشتراكية من ناحية أنها تشبه الدين ، لا من حيث ما تبعث في النفوس من الحمية ، ولكن من حيث أنها مستمدة من الناحية اللاّعقلية ، فقال إن الاشتراكية إيمان أكثر منها عقيدة . فكأنّ « لوبون » بما قال ، قد رفعها رفعاً ، وقدّسها تقديساً .

إن القِيَمَ التي عزاها كل من هؤلاء الكتّاب والمفكرين للاشتراكية ، هي أول شيء ، قِيمٌ نفسية ، بمعنى أنها عبارة عن الأثر والانفعال الذي تركه درس الاشتراكية في عقلية كل منهم ، فليس لنا أن نأخذها على أنها مبادىء أو مُثُل ، وإنما لنا أن نستنتج منها أن الاشتراكية في طورنا الحاضر ، بما تركت في النفوس والعقول والنظامات والسياسات من آثار ثابتة بالغة ، قد ارتفعت قيمتها في نظر المفكرين ، فتراوحت بين أنها من قبيل الأحكام المحتومة لفعل التّطور ، إلى أنها

دين ، فلا هي تنزل عن ما نسبت لها الفكرة التطورية من قيمة ، وقد ترتفع وتسمو إلى منزلة الدين .

على أن الطرفين اللذين يتراوح بينهما تقييم الاشتراكية ، طرف التطور وطرف العقيدة أو الإيمان أو الدين ، ليُثبِتُ كلٌّ منهما أن لها القيمة العليا في حالات هذا العصر . فالتطور كائن لا محالة . والعقيدة أو الإيمان أو الدين هي من أشياء الطبع أيضاً . فهل لنا أن نشك في أن عصرنا هذا هو عصر الاشتراكية ؟

* * *

— ٢ —

ليس إيماننا بالاشتراكية راجعاً إلى الاعتقاد الكامل بأن كل ما هو قائم من النظامات الاجتماعية خطأ كله ، ولا الى الاعتقاد بأن كل ما تدعو اليه الاشتراكية صحٌّ كله . ولست أدعي أنه في مقدوري أن أتنبأ بما سوف تكون عليه الحال ، إذا ساد المبدأ الاشتراكي في بلد كمصر ، وأخذ يطبق نظرياته على المجتمع . على أن الذي أومن به ، هو أن النظام القائم ليس هو كل الخير ، وليس هو كل الشر . وكذلك أي نظام اشتراكي ليس هو كل الخير ، وليس هو كل الشر . أضف إلى ذلك أن اعترافنا بما في نواحي مجتمعنا من تباين الفئات تبايناً كبيراً وما فيه من فقر وجهل ومرض وقذارة في الجسوم والأخلاق عامة ، إنما ينزع بنا إلى شعور ثابت بأن طبيعة التطور تسوقنا سوقاً نحو حالات جديدة ، ينبغي أن لا يفاجئ من بدنا زمامُها ، ولا أن تَفْجَأنا بفوراتها الشديدة العاتية ، فنقعَ فيما وقعت فيه فرنسا إبان ثورتها الكبرى ، أو روسيا في انقلابها البلشفي .

إذا صحَّ الرأي بأن الاشتراكية علاج لأمراض اجتماعية ، وإذا أيقنا بأن في هيكلنا الاجتماعي أمراضاً ، أهونها الفقر والجهل والمرض ، كان إحجامنا عن

الإعتراف بأننا مرضى وأننا نحتاج إلى علاج ، وأننا في طور انتقال أظهر مرائيه حمى تصيب النفوس والعقول ، ورحنا نكْبتُ بكل طرق القمع والإرهاب والظلم ، حرارة تلك الحمى أن تَتَنفَّس ، كان مثلنا كمثل الراعي الذي يسوق قطيعه نحو الهاوية السحيقة ، وفي يده سوط يلهب به الظهور ، ويضرب به الأعجاز ، حتى تبتلع الهاوية القطيع ، ثم الراعي .

كان العمى عن إدراك الخطر الناجم عن التطوُّر واقعاً في حالات اجتماعية ، هو السبب الأكبر في أكثر ما وقع في تاريخ الإنسان من الرَّجات العنيفة ، منذ أن تكوَّنت الدول القديمة ، من دولة المدينة في التاريخ الإغريقي ، إلى الدولة الأمبراطورية الرومانية . ومن قبل هذه وتلك في مدنيات مصر وبابل وأشور والكلدان وغيرها من الحضارات .

على أن أعظم الحكومات حمقاً وبلاهة وسوء تدبير ، حكومة لا تدرك أن الجماعات تجري في نشوئها بمقتضى نواميس خفية كل الخفاء ، غامضة كل الغموض ، وأن العقل والتَّدبُّر لا يستخلصان من هذه النواميس غير ظواهرها الملموسة ، وأنه بمقتضى تلك الظواهر ينبغي أن يُختطَّ السير في معالجة الأعراض التي تبدو على جسم المجتمع ، أو كما قال « سبنسر » الكائن الاجتماعي . وأشد من هذه الحكومة عَمىً ، حكومة تحاول أن ترد التطور عن سيره وتصده عن غايته ، فيكون مثلها كمثل من يريد أن يحوِّل مجرى نهر فائض فيسد عليه طريق الاندفاع والتَّرسُّل ، فتكون النتيجة طوفاناً عاتياً شديداً ، يطمس على كل ما أقام الجهد الإنساني من مستحدثات الحضارة ، ويمزِّق كل ما راب العقل والفكر والنهى من صدوع الإنسانية .

إن صد التطور عن أن يجري مجراه ويبلغ مبلغه ، هو في حقيقة الأمر

صراع بين النزعات الفردية المشبوبة القلقة المتغيرة ، الخاضعة لمقتضى الظروف التي تحيط بالفرد وتخبُّطه العقلي والنفسي ، وبين الميول الاجتماعية السَّويَّة المستقرة الثابتة . وكأني أرى أن ذلك الصراع أشبه شيء ببحر وإعصار. فالإعصار يحاول دائمًا أن يفرض على البحر شيئًا لا هو من طبعه ، ولا هو من فطرته . يحاول أن يجذبه نحو السماء ، ولكن البحر لا بدَّ من أن يرد إلى ذاته ما جذبَ منه الإعصار ، ويعيد إلى صدره ما رفع الإعصار من مائه ، ثم يعود إليه الهدوء ، وتمضي أمواجه متلاحقة متساوقة كما كان منذ أن قالت له كلمة الأزل كن فكان .

الإعصار هو النزعات الفردية . أما البحر فالميول الاجتماعية التي يسوقها التطور في خطوات متئدة ثابتة محققة الغايات . فإذا اتجهت تلك النزعات الفردية نحو القمع والكبْت والظلم ، وأرادت أن تغير تساوق أمواج البحر وتلاحقها ، فهنالك الإعصار ، وهنالك الدفع والجذب ، والفعل والرد ، وهنالك الرَّجَّات والفورات الحاطمة ، وهنالك الغضبة الثائرة . هنالك القارعة الكبرى .

***

إذا قلنا إننا نؤمن بالاشتراكية ، فإنما نقول ذلك وفي وعينا جميع هذه الاعتبارات . إعتبارات : إذا نحن لم نعها أو فرَّطنا في الاقتناع بها والإيمان بأنها من أوَّليات الحقائق الواقعة ، كنا كمن يهيىء المسرح ويعد الحلْبة ، لتمثيل ذلك الدور الخطير الذي يقوم به بحر يداعبه إعصار . ومن ذا الذي يستطيع أن يحتكم في البحر ، فيحول بينه وبين أن يبتلع ذلك الإعصار بكل ما فيه من قوة وقدرة ، مهما بلغتا من الشأن ومهما كان فيهما من عنفوان ، فإنهما صائرتان حتماً إلى الفناء ، في جانب ذلك الجبار الأعظم .

الإجتماع كائن حيّ نامٍ متطور . أما لغته فمجموع تلك النظامات التي ترتب

نواحي الحياة فيه . شأنه شأن الفرد ، مع اختلاف في أداة اللغة . وإذا كان كل كائن حي لابدَّ له من الإغتذاء ، ولابدَّ له من طرد الفضلات ، إذن فجسم الاجتماع بمقتضى ذلك يحتاج إلى القانون وإلى الإدارة وإلى الإقتصاد ، على أن يتطور جميع ذلك بحسب حاجاته ، ليظل جسماً سليماً من الأمراض بعيداً عن الإنتكاس بقدر الاستطاعة . وهو يحتاج في جانب ذلك إلى طرد الفضلات حتى لا يصاب بالتخمة ، ومن ثمت بالجمود ، أو بالموت الجزئي . فكل نظام لا يوافق مزاج جماعة من الجماعات ، سواء أكان قانوناً أم اقتصاداً أم غير ذلك ، هو بمثابة الفضْلة التي ينبغي أن تنبذ وتطرد من جسم المجتمع ، وإلاَّ فالنهاية واقعة محتومة . أما إذا حاولت النزعات الفردية قمع هذه العملية الطبيعية ، وحاولت أن تسد ذلك الطريق عمداً وبلادة وحمق ، فماذا من القوارع ينتظر هذه الجماعة ؟ ينتظرها قارعتان : البحر والإعصار .

* * *

قد يسبق الفردُ عصْرَه . ومعنى أن يسبق الفرد عصره ، أن يقوم في عقليته ونفسيته تصورات أو حقائق أو أوهام ، تتخلف عنها الجماعة الذي هو وَحْدة منها . ولا خطر مطلقاً في أن يسبق الفرد عصره ، لأن من ورائه قوة المجتمع ، تشتت من تصوراته ، أو تلبس حقائقه ثوب الخيالات ، أو تذهب بأوهامه أباديد . غير أن من وراء هذه الظاهرة ، ظاهرة الفرد السابق لأوانه ولعصره ، قوة التطور تسوق الجماعة برمتها نحو الأهداف التي قد يراها الفرد في نهاية الأفق البعيد ، كأنها جبابرة تصطرع في ضباب الزمن .

إذا مضت الجماعات في تطورها منتحية ذلك المتجه الذي يتجه فيه الفَوَاره من الأفراد السابقين لعصرهم ، وأخذت تنتقل من مدرج إلى مدرج ، حتى تبلغ

المكان التي تصطرع فيه تلك الجبابرة ، فهنالك يكون التطور قد بلغ بها المدى الذي يوجب عليها فيه أن تخرج على تقاليدها ، بالقدر الذي يضمن لها السلامة من الاندفاع نحو الإفراطات : إفراطات الجمود ، وإفراطات التهور . أما إذا بلغت ذلك المبلغ ، وحاولت النزعات الفردية أن تصدها عن الخروج على تقاليدها بقدر معلوم ، يوازن بين حاجاتها الطبيعية في الحياة التي تحياها ، فهنالك ولاشك يكون المسرح قد أُعِدَّ وأُكمِلَت مُهَيِّئَاته لتمثيل ذلك الدور الكريه ، دور البحر والإعصار .

* * *

إذا كان عصرنا هذا هو عصر الاشتراكية كما أظهرنا عن ذلك ، وإذا كنا نشعر شعوراً عميقاً بأن طوراً من أطوار نشوئنا الاجتماعي قد آن اختتامه ، وأن طوراً جديداً تساورنا عوامله ، فهل نكون آمنين على مجتمعنا من شرور الانتكاس ، إذا لم نعترف بذلك اعترافاً يحملنا على رؤية الحقائق كما هي واقعة ؟

وإذا كنا نعتقد أن العالم يسير نحو ذلك النظام الاشتراكي ، وأن الاشتراكية تسوقه سوقاً نحو غايات قد تكون غامضة علينا حيناً ، وقد تكون جلية ظاهرة حيناً آخر ، وإذا اقتنعنا بأننا نساير الزمن الذي نعيش فيه ، فهل نكون آمنين شرّ ما يحدث إذا نحن كبتنا التطور الطبيعي بعوامل اصطناعية ، وعمينا عن أن ندرك أننا بلغنا ذلك المدى الذي عنده تصطرع الجبابرة ، ذلك المدى الذي قد رآه منا أفراد ، وهو لا يزال في ضباب الزمن ؟

— ٣ —

عصرنا هـذا هو عصر الاشـتراكية . ذلك ما أثبتناه مستندين إلى أقوال ثقاة من أهل النظر ، وأثبتنا إلى جانب ذلك أن هذا العصر قد وُصف بأنه عصر الاشتراكية . لأن هذا المتجه الاجتماعي قد بلغ في عصرنا هـذا مدًى قصيًّا من التطور ، بعـد أن ظلَّ قرونًا تتلوهـا قرون ، يَحْبُو ويدرج في حجر الزمن ، فكان وليـداً ثم صبيًّا ثم يافعاً ثم اكتمل ، فامتدَّ فرْعُه واستبانت عضـلاته ، واستقامت مخايله ، حتى قال الأسـتاذ « كاينس » في كتاب له عنوانه « روسـيا البلشفية » — « لا تستطيع أن تفقه المـذهب الليفيني ، ما لم تنظر فيـه على أنه دين تبشيري » .

أما أن الاشتراكية أو الشيوعية أو غيرهما من المذاهب التي تتخلل ما بينهما ، هي بمثابة دين أو عقيدة على ما يذهب بعض الكتَّاب ، فإن ذلك إنما ينطبق على الظواهر التي تلابس هذه المذاهب من حيث أثرها وانتشارها وامتداد أصولها وفروعها في عقلية الجماعات . أما من جهة أنها دين تبشيري أو غير تبشيري ، فأمرٌ فيه نظر وفيه موضع للنقد ونواحٍ للبحث .

جَلَّ الدين أن ينزل بما فيه من عنصري التسليم المطلق والاستمداد مما وراء العقل ، أو كما يقول بنيامين كيد « النزعة الفَوْقيعَقْلِيَّة » ، منزلة الأشياء المادية التي يقتضيها تطور مستمد من حاجات معاشية أو نظم اقتصادية أو سياسية . ذلك بأن للدين عالمه العلوي الذي لن تطاوله فيه نزعات أخرى من النزعات الإنسانية ، مهما سما بها الغرض ، أو ارتفعت بها الغايات . إنما الدين من وراء الطبيعية . أما هـذه النزعات الاجتماعية التي يجري عليها التطور قوانينه وسننه ويخضعها لأسبابه وغاياته ، فتلك من شؤون الجماعات الإنسانية .

مجمل الأمر أن بين الدين والاشتراكية شبهاً من حيث القوة الدعاوية وسرعة الانتشار، إذا ما ثبتت عقيدتهما في النفوس. أما القول بأن الاشتراكية أو الشيوعية أو أشباههما من المذاهب، هي دين أو شبه دين تبشيري أو غير تبشيري، فأمرٌ لا يتعدى وجه الصحة فيه ما ذكرنا. فليس في هذه المذاهب الاجتماعية الاقتصادية من طبيعة الدين المستمدة مما فوق العقل شيء، بل إنها مذاهب مادية في قوامها، حرَّة في عقائدها، لادينية في أغلب الأمر.

أما انتشار الفكرة الاشتراكية في هذا العصر، فأشبه باكتساح النصرانية للعالم الروماني في زمان الرسل الأوَّلين، أو غزو الإسلام للشرق عقيب الدعوة المحمدية وفي عهد الخلفاء، أو ذيوع حركة الإصلاح الديني من خلال أوربا التيوتونية في عصر لوثر وكَلْفن، أو انتصار الحركة التبشيرية الإنجيلية واكتساحها العالم المعمور في عصرها. هذه هي الأحداث التاريخية الاجتماعية التي يمكن أن يشبه بها انتشار الاشتراكية في هذا العصر من حيث التسارع والقدرة على اجتذاب الأفراد والجماعات. على أن بعض الكتَّاب وعلى رأسهم العلامة «هرْنشُو» يقول بأن حركة ذيوع الاشتراكية قد تبذ هذه الحركات جميعاً. كما يقول مستر «بروس جلاسيار» — «ما من دعاية قد استطاعت أن تسبق الدعوة الاشتراكية من حيث السرعة والانتشار».

***

من أجل أن نعرف مقدار ما في الدعوة الاشتراكية من القدرة على الذيوع وكسب الأنصار واكتساح القلاع القديمة التي ظلت أزماناً متطاولة حصون النظامات القديمة التي لا تقتحم، ينبغي لنا أن ننظر في تاريخ هذه الدعوة في بلاد مِلاكُها الجمود على القديم والمحافظة على التقاليد الموروثة، كبريطانيا مثلاً.

فإن تاريخ الاشتراكية في هذه البلاد على ما فيه من لذة وفائدة، يدلنا دلالة قاطعة حاسمة على أن حصون التقاليد البريطانية، وقد انهارت أمام ذلك الجبار الثائر هي آخر ما تلجأ اليه النظامات القديمة من الدريئات التي تدفع عنها غائلة الانقلاب أما في غيرها من الأمم، فالأمر أهون من أن يقف حصن واحد من حصونه القديمة أمام هجمات ذلك المذهب المستمد من صميم التطور الجماعي .

* * *

في حدود سنة ١٨٧٠ لم يكن للاشتراكية أثر يذكر في بريطانيا . نعم . لقد ذاع في تلك البلاد روح اشتراكي في خلال الأزمات العاتية التي أعقبت عصر نابليون (١٨١٥ — ١٨٤٨)، ولكن هذا الروح قد زهق، وكُتِمت أنفاسه في منتصف العصر الفيكتوري (١٨٤٨ — ١٨٨٠)

قال « وليم موريس » وهو شاعر شيوعي : « إن طبقات العمال في بريطانيا في سنة ١٨٨٣ لم تكن تعرف شيئاً عن الاشتراكية وباستثناء أقلية ضئيلة كان لها اتصال بحركة الاشتراكية في القارة الأوربية، فإن العقلية الانجليزية كانت منابذة لها . فإن محاضراً في الاشتراكية في ذلك الوقت إذا قام يخطب الجماهير، أحسَّ أنه في ناحية القلة وأنه مُعارَضٌ، لا من ناحية الطبقة الوسطى فحسب، بل من طبقة العمال، الذين لم يكن في مستطاعهم أن يدركوا من نظرياته أو أفكاره التي يعرضها شيئاً، وكثيراً ما كانوا يعرضون عنه ويهملونه، لاجئين إلى مذهب التطرفية السياسية، الذي كانوا يجدون فيه متنفساً ينفسون به عن مشاعرهم، تاركين ما لا يفهم، إلى ما في مستطاعهم فهمه » .

مستر « سدني وب » من ثقات الاشتراكيين الذين أسسوا الجمعية الفَبْيوسية في انجلترا . وهي جمعية ذات شهرة أخذت اسمها من « فَبْيُوس »

الروماني ، وكان اشتراكيًّا قبل الأوان . كتب « سدني وب » كتاباً في تاريخ « النقابات العمالية » رمى فيه إلى تبيان الخطى التي تدرجت فيها الاشتراكية حتى قبضت على زمام هذه النقابات ، فقال إنه حتى سنة ١٨٨٥ : « قد اتفقت كلمة جميع الباحثين على أن نقابات بريطانيا إنما هي بمثابة القلاع التي تتكسر عليها هجمات الأغراض الاشتراكية » ، وزيادة إلى ذلك فقد أشار الأستاذ « وليم جراهام » وهو من أخص من عنوا بدرس تاريخ الاشتراكية في كتاب له نشر في عام ١٨٩٠ إلى « ان طبقة العمال في انجلترا ليست اشتراكية الميول ، بالإضافة إلى أنهم ليسوا من ذلك النمط اللَّيِّن الذي يمكن أن يصب في قالب اشتراكي . ذلك إذا حكمنا بمقتضى الظواهر التي بدت في مؤتمر نقابات العمال » .

على أن الأستاذ « جراهام » لم يكد ينشر كتابه حتى فوجىء العالم الانجليزي في هذه السنة نفسها مفاجأة لم يكن ينتظرها أحد من المشتغلين بالأحوال الاجتماعية ، فإن مستر « كير هاردي » وثلاثة من زملائه [1] ، استطاعوا أن يؤلفوا اتحاداً عماليًّا جديداً ، نبت كما لو كان نباته بعصاً سحرية ، فقوي وترعرع في أشهر قلائل ، حتى لقد استطاع بضربة واحدة أن يغزو قلعة نقابات العمال بآراء كانت من أذهب الآراء الاشتراكية في التطرف والقوة والتحدي قياساً على ما كان عليه حال المذاهب الاقتصادية في ذلك العصر .

* * *

لقد ولدت الاشتراكية في بريطانيا في خلال القرن التاسع عشر . أهلها لذلك ضعف الزراعة وركود الصناعة ، والتعريفات الجمركية التي حدَّت من رواج التاجر ، وساعد هذه العوامل وشدَّ أزرَها ، القلق السياسي .

(١) توم مان ، جون بيرنز ، بن تليت .

للعلامة الأمريكي « هنري جورج » كتاب أعتقد أنه إنجيل الحركات الاجتماعية منذ أن نشر ، عنوانه « التقدم والفقر » هو عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها في بريطانيا سنتي ١٨٨١ — ١٨٨٢ متجولاً في أنحائها ضارباً في مناكبها . ولم يكن « هنري جورج » اشتراكيًّا بالمعنى التام ، ذلك بأن كل محاولاته الإصلاحية قد اتجهت ناحية احتكار الأرض وقيمتها الايجارية ، ولم تتجه مطلقاً نحو رأس المال والفائدة . غير أنه بالرغم من أنه لم يجار الاشتراكية حتى آخر الشوط ، فإنه قد حاذاها في شوطها إلى مدى كبير . بيد أن حملته الإصلاحية قد هيَّأت أفكار المتطرفين وغرست فيها إحساساً عميقاً بأن هنالك ظلماً ، وأن هنالك طريقاً يمكن أن يُرْفَع به هذا الظلم ، ولو إلى الدرجة التي تضيق عندها الفروق الشاسعة القائمة بين الطبقات .

كان من نتيجة ذلك أن تألف الحزب المعروف باسم الاتحاد الديمقراطي (سنة ١٨٨١) وسرعان ما انقلبت غايته وتغير عنوانه فصار « الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي » (سنة ١٨٨٤) وفي نفس هذه السنة تأسست « الجمعية الفَبْيوسية » التي كان « جورج برناردشو » من نجومها اللوامع ، وانقسم حزب « الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي » وخرجت منه شعبة متطرفة المبادىء نارية المزاج فيها حماسة الاقتناع وحمية الاعتقاد ، واتخذت لها اسماً جديداً هو « العصبة الاشتراكية » . وفي سنة ١٨٨٧ نشر « ادورد بلامي » قصة عنوانها « نظرة إلى الوراء » صوَّر فيها المستقبل البسام الفياض بالأمل ، منسلخاً من الماضي العابس البغيض الملىء بصور التعاسة والشقاء .

هذه الظروف مجتمعة قد هيَّأت للإشتراكية سبيل التقدم في العقد الأخير من القرن التاسع عشر . على أننا لا نخطىء كثيراً إذا نحن قلنا أن هذه

الحركات لم تكن غير تعبير عملي مادي عن إحساسات دفينة في النفوس رسيسة في القلوب ، وغايات تشربتها الجماعات مؤمنة أن هناك ظلماً وأن هناك فقراً وتعاسة ، وأن هناك سبلاً قد تحول دون الفقر وقد تقضي على تعاسة التعساء ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور ، وترد عليهم اعتبارهم بأنهم أناس من نسل آدم وحواء ، وأنهم لم ينحدروا من جوف الأزمان الماضية وعلى جباههم طابع الفقر والجهل والمرض ، وفي أيدي غيرهم وثائق قدسية بالغنى والجاه والسلطان .

* * *

— ٤ —

تكوّن حزب العمال المستقل في سنة ١٨٩٣ . كان هذا الحادث فاتحة عهد جديد في الاشتراكية حيث أخذت تغزو النقابات الصناعية ، وتطبع السياسة العملية بآثارها الثابتة . وكان الحزب منذ أن تألف حزباً اشتراكياً متطرفاً ، فأتمّ بمبادىء مركس وأنجلس وإليانوزا ، ابنة مركس ، حيث قادته تلك العصبة التي كادت تقبض على زمام مؤتمر نقابات العمال في ليفربول سنة ١٨٩٠ . ولقد انفصل هذا الحزب انفصالاً كاملاً عن مذهب الأحرار الذي كان حزب العمال منتمياً اليه بعض الانتماء ، وأخذ يجاهد جهاداً مستمراً عنيفاً في سبيل أن يضمّ لقضية الاشتراكية ، النقابات الصناعية وجناح التطرفية السياسية .

على أن أول نجاح كبير أصابه هذا الحزب لم يتخلف كثيراً : ففي سنة ١٨٩٤ بعد معركة حامية الوطيس في « نوروتش » استطاع أن يحمل مؤتمر نقابات العمال الجمعية العمومية ، على الاتجاه نحو التأميم[1] ، بأن تكون الأرض وكل وسائل الانتاج

(١) جعل المرافق العامة ملكا للامة .

والتوزيع والتبادل ملكاً للأمة . ومنذ ذاك ، استبدت الاشتراكية بمؤتمر نقابات العمال ، اللهم إلاّ بضعة تنوحات قليلة ، ثم تطرقت إلى اللجان التنفيذية لهذه النقابات ، ثم تمكنت ، مع التدرّج ، من تجنيد جماعات العمال وخلق معسكر متأهب دائماً إلى شهر العراك على ما سمّوه « الرّسماليّة » .

أما في مجال السياسة فإن تطور الاشتراكية لم يكن أقل بروزاً وأثراً . ففي سنة ١٩٠٠ أغرى حزب العمال المستقل والاتحاد الاشتراكي الديمقراطي والجمعية الفابيوسية ، عدداً من نقابات العمال على أن تتّحد لتأليف « لجنة تمثيل العمال » (وكان مستر رامسي مكدونالد أول ناموس لها) لكي تقوم على اختيار مرشحي العمال وتعضيدهم ليكونوا أعضاء في البرلمان . واقتُسِمَ العمل ، فالجمعيات الاشتراكية رسمت الخطط السياسية ، وقامت نقابات العمال بتدبير الموارد المالية .

في انتخابات سنة ١٩٠٠ فازت اللجنة الجديدة بعضوين اثنين من خمسة عشر عضواً زجّت بهم في المعركة الانتخابية . وفي سنة ١٩٠٦ (وفيها اتخذ الحزب اسم حزب العمال) خاض العمال معركة خمسين كرسي ، فازوا منها بتسع وعشرين وقد نجح هؤلاء التسع والعشرون (وهم من جناح العمال الاشتراكي) في أن يجرّوا إلى ناحيتهم ثلاثاً وعشرين عضواً كانوا يمثلون جناح العمال الأحرار ، فاستطاعوا بذلك أن يوجهوا سياسة العمال البريطانيين وجهتهم السياسية ، وأن يحوّلوا الحركة الصناعية نحو الاشتراكية .

وفي سنة ١٩٠٨ اتخذ حزب العمال في اجتماعه السنوي الذي عقد في مدينة وستهل القرار الآتي :

« إن من رأي هذا المؤتمر أن الوقت قد آن لأن يتخذ حزب العمال خطة

نهائية ترمي إلى تأميم وسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل، وأن تخضع هذه الوسائل لحكومة ديمقراطية ترعى مصالح الجمعية كلها، وأن تحرّر طبقة العمال من استعباد رأس المال وملكية الأرض».

ولقد استطاع حزب العمال، وفقاً لما جرى عليه من هذه السياسة الاشتراكية، أن يمضي في كسب الكراسي في البرلمان. وفي يناير من سنة ١٩١٠ كان له في البرلمان أربعين عضواً، وفي ديسمبر من نفس السنة ٤٢، و٥٧ في سنة ١٩١٨، و ١٤٢ في سنة ١٩٢٢، و١٩١ في سنة ١٩٢٣، وفي تلك السنة استطاع حزب العمال أن يجابه حزب الأحرار ويقف أمامه في مجلس العموم موقف المعارض الشديد المراس. وبدت قوة الحزب على أشدها في يناير من سنة ١٩٢٤ عندما اتحد وحزب الأحرار، فهُزِمَ المحافظون، وكان من الطبيعي أن يجد الاشتراكيون أنفسهم في كراسي الحكم بقيادة رئيسهم الحر المجاهد: رامسي مكدونالد.

• • •

إن حصول حزب العمال على سلطة الحكم، ولو لم يكن مستنداً إلى أكثرية في مجلس العموم، قد بعث في الحزب روحاً جديداً، وزاد إليه نظامة وقُدْرة. وزاد إلى ذلك أن عدد الأصوات التي فاز بها الحزب في الدوائر الانتخابية، قد قفز من ٢ ½ مليون صوت في سنة ١٩١٨ إلى ٤ ½ مليون في سنة ١٩٢٣، وقد ظلّ رجال الحزب منذ ذلك الحين يتطلعون إلى أكثرية برلمانية كبيرة تمكنهم من تنفيذ برنامجهم الاشتراكي، حتى فازوا بذلك في سنة ١٩٤٥ وهزموا المحافظين هزيمة منكرة عقيب الحرب العالمية الثانية، واستأثروا بسلطة الحكم.

في سنة ١٩٢٤ تنبّأ مستر «ويلي» زعيم الجناح المتطرف من الاشتراكيين،

وكان وزيراً للصحة ، بأنه في مدى عشرة أعوام ، وربما كان في خمسة لا غير ، سوف تنغمر الطبقة الرَّسْمالية في انجلترا إلى أذنيها ، وأن عصر الانقلاب الاشتراكي ستفتح في تاريخه صفحة جديدة . وراجت في الوقت ذاته دعوة انقلابية صارخة ، وجهت إلى الناخبين تبث فيهم فكرة أن الاشتراكية هي الثمرة العظيمة التي أنضجها العصر الجديد . وأن الاشتراكية هي الغرض الذي يرمي اليه حزب العمال ، وأن اختيار العمال محصور في أمرين : فإما اشتراكية وإما لا اشتراكية .

وفي سنة ١٩٢٦ أرسل حزب العمال المستقل صيحة جديدة بثَّها في أنصاره في مؤتمر الربيع ، وفي مدارسه الصيفية بمجملها : « الاشتراكية في عصرنا » ، استعجالاً لعجلة التطور ، ووضع برنامجاً شاملاً يرمي إلى تحطيم النظام الرَّسْمالي القائم في الجمعية ، وإقامة دولة اشتراكية ، وصيغت الخطة بحيث يتم ذلك كله في خمس سنوات (١٩٢٦ — ١٩٣١) ولم يتخلفوا عن غرضهم كثيراً ، فقد استطاعوا أن يضعوا خطتهم موضع التنفيذ الفعلي في سنة ١٩٤٥ .

* * *

إن هذا التقدم الكبير الذي أحرزته الاشتراكية في أرض بريطانيا والذي أتينا على طرف منه في الصفحات السابقة ، لم يكن ليَدُرْ في خلد أحد من الباحثين أن الاشتراكية سوف تبلغ مداه هنالك ، قبل أن تطيح الحرب العالمية الأولى بآمال العالم .

ففي سنة ١٩٠٦ تساءل مستر « لويد جورج » : هل من إنسان يعتقد أنه في مدى جيل واحد ، وذلك أقل ما يمكن أن يقدر من الزمن ، سوف يقفز إلى سلطان الحكم ، حزب يرمي قوة واقتداراً إلى تأميم الأرض وسكك الحديد والمناجم والمحاجر والمصانع والورش ومحال الاستيداع والمتاجر ، بل وكل المؤسسات التي

تعمل في إنتاج الثروة وتوزيعها ؟ أكرر قولهم " في مدى جيل " ! إن الذي تستهويه مثل هذه الآمال هو اشتراكي : إما دَمَوِيُّ الوسائل ، وإما أبله .

تفوّه مستر لويد جورج بهذه العبارات ، وكان لحزب الأحرار ٣٩٧ مقعداً في مجلس العموم ، في حين أن حزب العمال الجديد لم يكن له غير ٢٩ كرسيًّا . بل جاء كلامه هذا عقيب انتخاب سنة ١٩٠٦ ، وكانت الأصوات التي أعطيت لمرشحي حزب العمال ١٩٦ر٣٢٣ صوتاً في خمسين دائرة انتخابية خاض فيها الحزب المعركة الانتخابية . وبعد ذلك بأربع سنوات فقط ، أي في انتخابات ديسمبر سنة ١٩١٠ ، وهي الانتخابات التي تقدمت الحرب العالمية الأولى ، خاض حزب العمال المعركة الانتخابية في ٥٦ دائرة ، فنجح في الحصول على ٤٢ كرسي في مجلس العموم ، وبلغ عدد الأصوات التي حازها مرشحوه ٨٠٢ر٣٧٠ صوتاً . ولم يكن ذلك بشيراً بأن هذا الحزب سوف يرقى سلم السلطان بسرعة ، أو أنه سوف يكون له تأثير سياسي بيّن .

* * *

ولكن الانتخابات التالية وهي التي وقعت في سنة ١٩١٨ قد قصمت على العالم قصة أخرى ، هي قصة مصغرة من القصة التي روتها الانتخابات البريطانية عقيب الحرب العالمية الثانية . ففي هذه الانتخابات ، خاض الحزب المعركة في ٣٦٧ دائرة انتخابية فاز منها بعضوية ٥٧ كرسيًّا ، ونال من أصوات الناخبين عدداً لا قياس بينه وبين العدد الذي ناله في الانتخابات السابقة ، إذ بلغت ٠٠٠ر٢٢٤ر٢ صوتاً [1]

(١) ينبغي أن نذكر أن قانون تمثيل الامة الذي صدر في سنة ١٩١٨ قد ضاعف من عدد الدوائر الانتخابية منذ سنة ١٩١٠

وقد سجلت الانتخابات التالية ما يفوق هذه النتائج[1] وتعليقاً على هذه النتيجة كتب محترم الرأي فقال :

« إن كوارث الحرب وما تبعها من المؤثرات قد بعثت الحركة الاشتراكية الوئيدة ونبهتها فوقفتها فجأة من حركة هي مجرد أمل مرغوب في تحقيقه يوماً من الأيام ، إلى مجال السياسة الواقعة ، حتى لقد وقف مؤيدوها وجهاً لوجه أمام المعضلة الكبرى ، معضلة تحقيق النظريات التي تقوم عليها »[2] .

كيف حدث أن كان للحرب العالمية الأولى كل هذا الأثر البالغ في إنعاش الحركة الاشتراكية وتنشئتها بمثل هذه السرعة العجيبة ؟ وللإجابة على هذا السؤال ينبغي لنا أن نلاحظ ما يأتي :

أولاً — أن الحرب قد طاحت بما بقي للأحزاب القديمة من ثقة في صدور الناس . فإن هذه الأحزاب قد عجزت عن أن تحول دون تلك الحرب ، وعجزت عن أن تدرك ضخامتها في الوقت المناسب ، فلما وقعت أدارتها بإسراف شديد في الثروات وفي الأرواح . ومدّت من عمرها لغير ضرورة ، ثم ختمتها بصلح بعيد عن الفوز برضا الأمم .

ثانياً — أحدثت الحرب قلقاً وامتعاضاً كبيرين في نفوس العمال بسبب حاجتها إلى المتطوعين وتدخلها في الصناعات وإنكارها كل إنكار القواعد

---

(١) كانت الأرقام التي سجلتها الانتخابات التالية للحرب الهائلة كما يأتي :

السنة	الدوائر الانتخابية	الكراسي	عدد الأصوات
١٩٢٢	٤١٤	١٤٢	٤ر٢٣٦ر٠٠٠
١٩٢٣	٤٢٧	١٩١	٤ر٣٨٤ر٠٠٠
١٩٢٤	٥٦٤	٩٥٠	٥ر٠٠٠ر١٩٠

(٢) جريدة التيمس في ١٠ من ابريل سنة ١٩٢٦

والأنظمة التي تجري عليها نقابات العمال ،والاضطراب الذي أصاب الحياة الخاصة من جرائها ، والفوضى التي حلت بالحياة القومية فزعزعت أركانها .

ثالثاً — إن الحرب ابتداءً من سنة ١٩١٧ قد أحدثت ارتفاعاً كبيراً في الأسعار . وبالرغم من أن هذا الارتفاع يرجع إلى أسباب طبيعية ليس للسياسة فيها من أثر ، فإن سببه قد عزي في الغالب الى « الانتفاعية » — Profiteering وغير ذلك من الأسباب المشينة : وأن الحكومة لم تسارع إلى علاج الشرور الاقتصادية أو أنها لم تكن قوية إلى الدرجة التي تنجع في علاجها .

رابعاً — إن الوزارة الانجليزية منذ سنة ١٩١٥ كانت ائتلافية ، فحال ذلك بين الناقمين من حزبي الأحرار والمحافظين وبين التحول من أحد الحزبين إلى الآخر . كما أن كلا الحزبين كانا معرَّضين لكثير من الشك وعدم الثقة التي كانت تنشأ عن حالات الحرب . فكان من الطبيعي أن كل تغيير في الهيئة الإدارية، إنما يتجه نحو الاشتراكيين ، وكانوا منذ بداية الحرب من دعاة السلام المعارضين في الحرب .

خامساً — إن القارة الأوربية قد زوِّدت النزعات البريطانية بأمثلة من الثورات الاشتراكية كانت عميقة الأثر ملهبة للعواطف . وأول هذه الثورات الثورة الروسية التي أسقطت القيصرية ، وكانت أعنف أعداء الاشتراكية . وقد وقعت هذه الثورة في اكتوبر من سنة ١٩١٧ . وتبع ذلك قيام الدكتاتورية المركسية التي رأسها لنين وتروتسكي .

***

وليس من الهين أن نبالغ في الأثر المثير الذي خلفته الثورة الروسية في الاشتراكيين البريطانيين ، فإن حزب العمال المستقل وغيره من المؤسسات

الاشتراكية ، قد عقدت مؤتمراً كبيراً في مدينة « ليدز » (يونيه سنة ١٩١٧) كان لمستر رامسي مكدونالد فيه الدور الرئيس ، وُضِعَ فيه برنامجَ كامل يرمي إلى إقامة جمهورية سوفيتية في بريطانيا . وبُعيدَ ذلك نُصِّب مستر « جون مكليان » أول رئيس للجمهورية ، بوحي من سلطات موسكو على ما يظهر . وفي سنة ١٩١٨ عند ما اقتربت نهاية الحرب ، وبان جليًّا أن النصر سيكون من نصيب الحلفاء ، راحت أمبراطورية هبسبرج وأمبراطورية هوهنزلرن في أثر قيصرية رومانوف ، وطفقت النمسا والمجر وألمانيا يسرنَ جميعاً نحو الجمهورية الاشتراكية . ففي مدى عامين مفعمين بالأحداث والانقلابات ، زالت من أمام الاشتراكية كل العقبات التي كانت تحول بينها وبين الذيوع والأخذ بخناق الجماعات . ففيهما تحطمت ثلاث الإمبراطوريات الحربية العظمى ، وكانت بمثابة الحصون المغلقة في وجه الاشتراكية. ومن ثمت اجتاحت أوربا موجة الثورات الاشتراكية في عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ . ففي ألمانيا استقوت الحركة « الإسْبارْطَقُوسِيَّة » بوحي كارل ليبنخت وروزا لوكسمبرج (يناير ١٩١٩) . وهبط فرنسا مندوبين من موسكو فنظموا حزباً ثوريًّا انحاز إلى ناحية العنف السوفيتي تابعاً للدولية الثالثة ، أي الى ناحية البلاشفة. وبدأ النقابيون الفوضويون في إيطاليا يحتلون المعامل ويخلُّون بكل نظام ، حتى أدرك موسوليني وأنصاره الفاشيين إيطاليا فأنقذوها من الفوضى ، لأن الحكومة الايطالية إذ ذاك كانت في حالة عجز تام . وانتشر في المجر ظل الإرهاب بقيادة « بلا كون » أحد صنائع لينين وتروتسكي ، وظلَّ الهول والرعب مخيماً على هذه البلاد من مارس إلى اغسطس سنة ١٩١٩

على الجملة لاح للناس أن التعبئة السوفيتية التي تنبَّأ بها « ماركس » وعمل على تهيئتها قد اقتربت ساعتها وآن أوانها . فلا عجب إذا لحظنا أن الاجتماع الذي

عقدته الدولية الثالثة في سنة ١٩٢٠ ، قد لابسه الحَمَس ، ولازمته الثقة ، وطارت في أفقه الآمال .

جمَّاع ذلك كان له أثره في بريطانيا . فقد حضر مندوبون من الإنجليز اجتماع الدولية الثالثة في موسكو ، وعادوا من هنالك مستصحبين أصدقاء وحلفاء من الروس ، وقد زوِّدوا بسخاء من الذهب الروسيّ ، عساهم يستطيعون أن يؤلفوا في إنجلترا « مجالس العمل » ، ومن طريق الاعتصابات ، وبخاصة اعتصاب عمال المناجم في اكتوبر ونوفمبر من سنة ١٩٢٠ ، حاولوا أن يحققوا الحلم البلشفي بإقامة جمهورية سوفيتية .

في ديسمبر من سنة ١٩٢٠ أعلنت الحكومة البريطانية أن إنجلترا يدخلها ٢٣٫٠٠٠ جنيه كل أسبوع لتأييد الشيوعية . وقد قدرت السلطات أن للبلاشفة ١٢٢٠ صنيعة يعملون لحسابهم في انجلترا سنة ١٩٢١ (١)

كل هذه الأسباب مجتمعة ، كان لها أكبر الأثر في التمهيد للآراء الاشتراكية والشيوعية في بريطانيا . وإن النظر فيها ليساعدنا على فهم العوامل التي أدت إلى نزوع الناس نحو الاشتراكية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وهي في مجموعها أسباب خلفت الحربُ الكثيرَ منها . هي القلق والفوضى والوهم . ولقد كان لهذه الأسباب من الأثر ومن قوة الفعل ، ما حمل الجماعات على الدخول في دين الاشتراكية زمراً : سواء أفي بريطانيا ، أم في دول القارة الأوربية .

---

(١) ذكر سير وليم جوينسون هكس W. Joynson Hicks في ٢٤ من يوليه سنة ١٩٢٤ في المورننج بوست أن الاشتراكيين في انجلترا ينفقون ما لا يقل عن ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه كل عام في سبيل دعايتهم ، وأنهم يعقدون حوالي ١٠٠٠ اجتماع أسبوعي في أنحاء انجلترا ، وأنهم زيادة على ذلك ينشرون عدداً من الصحف الاسبوعية والشهرية والربع سنوية لا يقل عن خمسة أو ستين صحيفة فضلا عن النشرات والكتب التي كانت تخرج من المطابع كأنها بحر دافق .

ولقد رسمت مسز "وبستر" في كتابها الصغير "شبكة الاشتراكية" صورة من هذه الحركة وتنبأت بما سوف يكون لها من ضخامة وقدرة على التشعب والانفراج في مستقبل قريب . فقد أظهرت أن دعاة الاشتراكية : « يعرفون كيف ينتفعون من كل شيء يقع تحت أيديهم ، فاستطاعوا بذلك أن يتغلغلوا في كل مرفق من مرافق العمل والجهد الانساني — في الفن والأدب والتعليم والحركات النسوية والدينية — وأمكنهم أن يضعوا أنوفهم في كل وسيلة من وسائل النشر : في الصحافة والمسرح والسينما والإذاعة : تلك الأداة التي أصبحت ، حتى في ظل حكومة محافظة ، بوقاً ينفخ فيه دعاة الاشتراكية » .

* * *

— ٥ —

إن النصر الذي حازته الاشتراكية في بريطانيا سنة ١٩٢٤ ، كان له نظائر وأشباه في دول أوربية ، سيقت من طريق برلماني الى تلك الناحية من الاصلاح الاجتماعي . ففي سنة ١٩٢٤ ، وهي الحد الذي بلغت فيه الاشتراكية البرلمانية أقصى مدّها ، كان في أوربا ما لا يقل عن ثماني حكومات قائمة على أساس اشتراكي ، ثلاث في القارة وهي حكومات السويد ، ١٩٢٠ ، ودنمرك ، ١٩٢٤ ، وبريطانيا ، والخمس الباقيات في الممتلكات البريطانية المستقلة وراء البحار .

غير أن هذه الاشتراكيات البرلمانية تتضاءل وتصغر إذا هي قيست بالنصر الباهر الذي حازته الشيوعية الثورية في روسيا . وليس بنا من حاجة هنا لأن نروي تلك القصة السوية التي تصور كيف استطاع لينين ورفيقه تروتسكي ، ومن لف لفهما من البلاشفة ، أن يستقلوا في روسيا وأن يؤسسوا دكتاتورية رسمت

خطوطها وخطمات معالمها على أخص المبادىء الماركسية . على أننا نغي في ذكر بعض الحقائق البارزة التي صاحبت ذلك الانقلاب الأعظم ، لعلّنا نظهر بذلك منزلة الاشتراكية ونقدّر قيمتها، إذ نعرف إلى أي مدى بلغ الانشعاب الاجتماعي عن خطط الماضي وقواعده ، وإلى أي حد تدخل الاشتراكية في باب الماركسية .

حطّمت الثورة الروسية التي وقعت في اكتوبر من سنة ١٩١٧ النظام القيصري ، وأقامت حكومة جمهورية بصورة مّا ، كان لمجلس « الدوما » فيها سلطان إسميّ ، ومنذ اليوم الأول الذي أسست فيه تلك الحكومة الجمهورية ، ألفى « الدوما » أن هنالك قوة تواجهه وسلطة تنابذه . قوة نشأت بذاتها ويسيطر عليها « سوفيت » العمال ومندوبو الجند ، ويرفرف عليها علم الاشتراكية . هذه الهيئة ، وكان لها سلطة أعلى من سلطة « الدوما » ونفوذاً أكبر ، أخذت تشل السلطة التنفيذية وتمنعها من العمل ، حتى لقد أمكنها أن تقيل ثلاث حكومات بحكم القوة القادرة ، فأضعفت السلطة البرلمانية وأعجزتها ، فوجد البلاشفة الطريق ممهوداً إلى الحكم في ٧ من نوفمبر : ١٩١٧ . ولقد تسنم البلاشفة ذروة السلطان ، مفعمين بالمبادىء الماركسية ، نشاوى بالصورة التي أضفاها ماركس على المذهب الاشتراكي ، وعمدوا توًّا إلى وضع تلك المبادىء موضع التنفيذ .

في الشهرين الأولين من قبضهم على زمام السلطة ، أصدر البلاشفة ١٩٣ أمراً وضعوا بمقتضاها أساس الشيوعية على قواعد قومية لأول مرة في تاريخ الدنيا .

١ — في اليوم الثاني من تسنمهم ذروة السلطان أصدروا أمراً بتأميم الأرض ، ومعنى هذا أنهم صادروا بغير مقابل جميع الضياع والمزارع الخاصة ، سواء أكانت شعبية أم قيصرية ، تابعة للأديرة أم الكنائس ، وعهد بها إلى لجان إقليمية ومجالس سوفيت ريفية ، ليستغلها الفلاحون باشراف هذه اللجان أو المجالس . على

أن هذا الأمر لم يصدُق عند التنفيذ ، صدقه في النظر . لأن الفلاحين ، من غير تريث أو انتظار لما سوف تعمل المجالس السوفيتية أو اللجان الاقليمية ، مضوا يضعون أيديهم على الأراضي عنوةً واقتداراً وراحوا يزرعونها ويستغلون زرعها على أنها ملكهم الخاص . ولقد جهد زعماء البلاشفة كل جهد وعملوا بكل طريق ممكن لينفذوا فكرة الملك الشيوعي للأرض ، فلما يئسوا من ذلك رجعوا عن ذلك ، وقالوا إن عقلية الفلاحين عقلية أوساطية « برجوازية » ، وأن الزمان وحده هو الكفيل بتكييفها وجعلها عقلية « دهماوية » ، عن طريق التربية والتعليم .

٢ — أمّموا الصناعة والتجارة ، فصادروا ، بغير مقابل طبعاً ، جميع المصانع ومخازن الاستيداع والمكاتب ومخازن التجارة ، وكل وسائل النقل .

٣ — صادروا رءوس الأموال ، واستولوا على جميع مخزوناتها ، وأمموا البنوك وما تحوي من ودائع ، وألغوا جميع الديون الفردية والحكومية .

٤ — تسلطوا على الصحافة ووسائل النشر ، وأوقفوا جميع الصحف وصادروا جميع الكتب التي تعاند مذهبهم ونظامهم الحكومي ، وحالوا دون نشر أية أخبار لا تمر على الرقيب السوفيتي .

٥ — منعوا حرية الكلام والاجتماعات العامة ، وفرضوا عقوبات ، كثيراً ما بلغت الإعدام ، على كل من يتفوّه بشيء فيه روح الميل إلى الناحية المضادة للثورة .

٦ — تحكموا في كل سبل التعليم ووسائله ومنعوا تلقين أي شيء فيه ما لا يتفق والمذهب الماركسي ، ومن ذلك التعاليم النصرانية .

٧ — عملوا بالرشوة حيناً ، وبالقوة حيناً آخر ، على اقتلاع كل أثر للعبادة الدينية في أنحاء روسيا .

٨ — بدّلوا قوانين الزواج والطلاق تبديلاً كليّاً ، فجعلوا الزواج مجرّد أمر شكلي ، والطلاق مجرد إعلان الارادة به .

٩ — جعلوا نقابات العمال جزءاً من الحكومة ، أي إدارة من إداراتها ، وعينوا ساعات العمل والأجور ، ومنعوا الاعتصابات وحظروها ، وجندوا العمال وأرسلوا بهم إلى حيث يريدون ، وفرضوا عليهم الأعمال التي يختارون ، وجعلوا الموت عقاب العصيان .

١٠ — أسسوا جيشاً أحمر خاضعاً تمام الخضوع لإرادتهم ، ليكون أداتهم في القضاء على كل ما يظهر من روح المعارضة لهم .

* * *

بعد أن قامت « دكتاتورية الدهاويين » الإشتراكية على هذه القواعد ، وثبتت قواعدها بعض الثبات ، التفت البلاشفة إلى منابذيهم في الرأي والوسيلة ، وراحوا يستأصلون شأفتهم استئصالاً . ولقد ظهر من إحصاء رسمي روسي أن البلاشفة قتلوا ٢٨ أسقفاً و ١٢١٩ قسيساً ، و ٦٠٠٠ أستاذ ومدرس في الجامعات و ١٢٬٩٥٠ من ملاّك الأرض و ٥٤٬٠٠٠ ضابط و ٧٠٬٠٠٠ من رجال الشرطة و ١٩٣٬٢٩٠ من العمال و ٢٦٠٬٠٠٠ من الجند و ٣٥٥٬٢٥٠ من المستنيرين والفنيين و ٨١٥٬١٠٠ من الفلاحين [1] .

هذا جميعه كان من فعل أقلية «مستنيرة» . وقدر أن عدد البلاشفة في روسيا لم يتعدّ إذ ذاك المئتي ألف شخص ، في مجموع يبلغ ١٨٠٬٠٠٠٬٠٠٠ ، ومن المئتي ألف

(١) أنظر كتاب ساروليا : C. Sarolea : Impessions of Soviet Russia (1924) p. 18.

بلشفي ، على ما قال لينين بصراحته المعهودة ، لا تتجاوز نسبة المؤمنين بالشيوعية منهم واحداً في المئة ، أما البقية فقسمها بالنسبة الآتية : ٦٠ في المئة مخلون بلهاء ، و ٣٩ في المئة جُناة . على أن هؤلاء البلاشفة جميعاً ، بما فيهم من المؤمنين والمغفلين والجناة ، قد خضعوا خضوعاً أعمى ، لإرادة رجل واحد .

إن الرعب والفزع اللذين لازما توطيد المذهب البلشفي في روسيا لا يحيط بهما وصف . أما اقتصاديات ذلك المذهب والنظم التي يقوم عليها ، فلا شك في أنها دلّت على تدهور كامل ، إذا قيس فشلها على جمال النظريات التي أوحت بها . ومع ذلك فإن هذا المذهب ظلّ وسيظل يتصل من مختلف النواحي بخيالات الطبقات العاملة في جميع أنحاء العالم ، ويستجدي عطفهم عليه وإشفاقهم به ، بما يحيي فيهم من الآمال وما يشعل في نفوسهم من حَمَس وخيلاء .

إن وضع هذا المذهب موضع التنفيذ في روسيا ، حادث فاصل في تاريخ الاجتماع الإنساني . هو بدء تسلّط الخادم على السيّد ، وطرد العبد لصاحب الأرض . بدء عهد شُيّدت فيه الدنيا انقلاباً كاملاً للأوضاع القديمة المأثورة ، وتسنّم المستَبَدّ بهم والمبعدين عن السلطة ، كراسيّ القدرة والسلطان .

كانت الصيحة : « خيرٌ لك أن تحكُم في جهنم ، من أن تُستعبد في الفردوس » خيرٌ لك أن تعاني الحرمان والجهْدَ والاستعباد في ظل « دكتاتورية دهماوية »[1] من أن تتمتع بالخيرات والسعادة والحرية في حكم برجوازيّ ، أي حكم الأوساط وبالحري في حكم « الأوساطيين » .

ولكن بالرغم من المثُلات التي شهدتها أمم الأرض في روسيا — « لا يوجد

---

(١) Proletarian Dictatorship. سأجري فيما أكتب في هذه البحوث على ترجمة Bourgeoisie : الأوساطيون Proletarians البلاشفيون :

في الأرض من أمة اتسعت رقعتها في أوربا ، لا يتخذ فيها العمال العدّة لتهيئة الأسس لإقامة دولة اشتراكية » ، على ما يقول الاستاذ « سكوت نيرنج » .

إذا صحّ قول هذا الأستاذ ولو بشكل جزئي ، وجب على كل المشتغلين بالسياسة العملية ، أن يلموا بالإشتراكية وتاريخها على صورة مفصلة واسعة .

وذلك ما سوف نعالجه في رسائل تالية ننشرها فيما بعد .

الخاتمة

نعيش في عصر اشتراكي كما نقول إذا أرّخنا لأسلافنا أنهم عاشوا في عصر وثني ، ثم في عصر نصراني ، ثم في عصر إسلامي . يظلنا عصر إشتراكي النزعات والميول والعواطف . هذه الحقيقة الثابتة تحفزنا جميعاً إلى الإكباب على درس الاشتراكية ، وأن نستعمق في درسها من طريق تاريخي صرف ، مقرون بدرس تحليلي كامل ، لنعرف في سلطان أيّ من النزعات الإنسانية تطوى أعمارنا الفردية ، وتطوي الجماعات عمرها الأممي . علينا أن ندرس ذلك درساً كاملاً حتى نستطيع أن نفرّق بين مختلف الصور التي تشكلت فيها الإشتراكية على مرّ الايام وتتالي السنين ، وندرك على الأقل أننا مسوقين حتماً في ذلك التيار الجارف ، فننشر أشرعتنا أو نطويها ، بحسب ما تتطلب السفين التي تقودها في ذلك الخضم الواسع المتلاطم الأمواج .

أمّا أن تنكر ذلك ونمضي نقنع أنفسنا زوراً وتدليساً ، أن سفينتنا بمنجى من التيار ، وأنها على شاطىء الأمان ، تشدها اليه أواصر من الدين أو التقاليد أو غير ذلك ، ونعمى عن أن هذه الأواصر قد أخذت تنحل بانحلال كل قديم استندت اليه ، فذلك أضل طريق تتبع ، وألوى سبيل نختار .

Bibliography

Socialism and Democracy in Europe (1913), Dr. S. P. Orth.

Die Gemeinwirtschaft (1922) L. Mises.

The Case for Socialism (1927) F. Henderson.

Socialism, R. T. Ely.

Short View of Russia, J. M. Keynes.

The Meaning of Socialism, J. Bruce Glasier.

Socialism : its Growth and Outcome (1893), William Morris.

Socalism, New and Old (1890), Brof. William Graham.

History of Trade Unionism (1920), Sydney Webb.

Progress and Poverty (1882), Henry George.

Looking Backward, (1887), Edward Bellamy.

The Common Sense of Socialism (1924), A. Gordon.

Socialism, as it is, (1912), W. E. Walling.

The Socialist Network (1926), Mrs. N. H. Webster.

Impression of Soviet Russia (1924), C. Sarolea.

Psychologie du Socialisme, M. Gustave Le Bon.

A Survey of Socialism (1929) F. T. C. Hearnshaw.

فهرس

أسماء الأعلام الهامة التي وردت بهذه الرسالة

Arther Shadwell, Dr'	أوثر هادْول
Ben Tillet	بن تِـليت
Bruce Glacier	بروس جلاسيار
Calvin	كالفِـن
Edward Bellamy	إدْوَارْد بِلامِي
Eleanora	إليانورا
Ely, R. T.	إيلي
Engels	أنجلس
Gordon. A.	جوردُون
Gustave Le Bon	جوستاف لوبون
Hearnshaw, F. J. C.	هِرْنشو
Henderson, F.	هِندرسون
Henry George	هنري جورج
John Burns	جون برْنِـز
John Maclean	جون ماكليان
Joynson-Hicks, Sir W.	جوينسون هكس
Karl Liebknecht	كارل لِيبنـخِـت
Keir Hardie	كيرْ هاردِي
Keynes	كاينس
Lenin	لنين
Lloyd George.	لويدجورج (رئيس الوزراء)
Lloyd-George, D.	لويدجورج . د
Luther	لوثر
Marx, Karl;	كارل ماركس
Mises, L.	ميزس ،ل .
Napoleon	نابوليون
Orth, R. T.	أورث
Ramsay MacDonald	رامسي ماكدونالد
Rosa Luxemburg	رُوزا لُوكْسِمْبُرج
Sarolea,. C.	سارولـيا
Scott Nearing	سكوت نيرنج
Shaw. J. B.	شو ، جورج برنارد .
Sidney Webb	سدني وب
Tom Mann	توم مَـان
Trotsky	تروتسكي
Walling, W. E.	وولِنـج
Webster, Mrs. N. H'	مسز وِبستـرَ
Wheatly	ويتـلي
William Graham	وليم جَـرَاهام
William Morris	وليم مُـورِّس

فهرس الموضوعات

صفحة

المقدمة ٣

الفصل الاول : بين القيود والحدود

(١) ما هي الشيوعية ٧

(٢) حرب الطبقات : ما هي ؟ ١١

(٣) شيوعية وديمقراطية : ثم ماذا ؟ ١٨

(٤) أوهام الحقيقة : كيف نراها ؟ ٢٦

الفصل الثاني : نؤمن بالاشتراكية

(١) ليس الايمان بالاشتراكية تقليداً وانما هو وراثة العصر الحاضر ٣٤

(٢) الايمان بالاشتراكية ونظم الاجتماع القائمة ٤٠

(٣) هل الايمان بالاشتراكية يرتقى الى منزلة العقائد الدينية ٤٤

(٤) تأليف حزب العمال الانجليزي وتاريخ تطوره السياسي ٤٩

(٥) صعود انتصار الاشتراكية ٥٨

(٦) الدكتاتورية البلشفية فى روسيا وأثرها في الحكم ٦١

الخاتمة ٦٣

المراجع ٦٤

فهرس أسماء الاعلام الواردة في هذه الرسالة ٦٥

فهرس الموضوعات ٦٦

الرسالة الثانية

القانون والحرية

في حضارة الغرب

تظهر في شهر مارس سنة ١٩٤٧

الرسالة الثالثة

طوفان القدم

صراع بين اللاهوت والعلم

تظهر في شهر ابريل سنة ١٩٤٧

الثمن ١٢ قرشا

عدا البريد